

## الفصل الرابع

# سيرة الرسول في تصورات الغربيين ( ٢ )

### ● تمهيد :

لسنا هنا فى حاجة الى اعادة ما سبق ان ذكرناه فى تقديم الحلقة الأولى عن أهمية هذا البحث ومبررات ترجمته رغم ما قد يكون فيه من أوصاف تسيء الى نبينا صلى الله عليه وسلم . ولهذا نرجو من القارئ الكريم أن يرجع فى ذلك الى ما ذكرناه فى هذا الصدد فى موضعه من الحلقة الأولى .

ولكننا نود هنا أن نضيف الى ذلك حقيقة هامة تتمثل فى أننا اذا أردنا أن نعرف سر موقف الأوروبيين اليوم من الاسلام ونبيه فان علينا أن نبحث عن ذلك ، ليس فى الظواهر السطحية التى نراها اليوم هنا أو هناك ضد أو مع الاسلام ونبيه ، بل فيما رسخته القرون السابقة من مواقف تجاه الاسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم ، والتى لا تزال فى عمق الأوروبيين تظهر فى المناسبات بوعى أو بغير وعى . ومن هنا تأتى أهمية التعرف على هذه المواقف السابقة .

ولعلى انتهز هذه المناسبة لأوجه نداء الى المؤسسات العلمية الاسلامية لتخصيص جزء من جهودها لدراسة التراث الغربى المتعلق بالاسلام وربما كان من الأوفق أن تتجه بعض هذه المؤسسات الى انشاء مركز علمى خاص لدراسة التراث الغربى المشتغل بالاسلام . وهو تراث غزير فى كنهه . ويكفى أن نشير هنا الى أن ما ألفه المستشرقون عن الشرق فى قرن ونصف ( منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ) قد بلغ ستين ألف كتاب (١) .

---

(١) ادوارد سعيد : الاستشراق ص ٢٩ ترجمة كمال أبو ديب — مؤسسة الأبحاث العربية — بيروت ١٩٨١ .

ومواقف الغرب الأساسية تجاه الاسلام لم تتغير كثيرا فى عصرنا الحاضر رغم بعض الظواهر الايجابية فى بعض الأحيان . ففى الوقت الذى نرى فيه سكرتارية الفاتيكان لغير المسيحيين تصدر كتابا تدعو فيه الى الحوار بين المسيحية والاسلام على أسس متحررة من الأوهام والأحكام السابقة ضد الاسلام والتي هى من موروثات العصور الوسطى( ٢ ) نجد مؤلفات تصدر فى الغرب بين الحين والآخر فى أيامنا هذه تحذر من خطر الاسلام على مستقبل الغرب والحضارة الغربية( ٣ ) ، ونجد بعض الكتاب الغربيين – مستشرقين وغير مستشرقين – لا يزالون حتى اليوم أسرى التصورات القديمة التى خلفتها العصور الوسطى عن الاسلام ونبيه ، ناهيك عما تفعله وسائل الاعلام فى الغرب بالاسلام ومقدساته .

وفى هذا الجزء من البحث( ٤ ) يلاحظ القارئ الكريم أن بفانموللر يعود للحديث مرة أخرى عن بعض المؤلفات التى سبق أن تناولها فى الحلقة الأولى . ولكن الحديث هنا يختلف ، إذ أنه هنا يفصل ما سبق أن أجمله وذكره هناك فى عبارات قصيرة ، ويلقى أضواء على جوانب لم يشر إليها من قبل . ومن هنا يمكن أن بعد الحلقة السابقة – الى حد ما – بمثابة تمهيد لهذه الحلقة . فهنا تعرض وجهات النظر مفصلة ومدعمة فى أغلب الأحيان باقتباسات من المؤلفات المعنية . وقبل أن نعرض الترجمة الكاملة للفصول التى اخترناها من كتاب بفانموللر نود أن نقدم لها بنظرة اجمالية تشير فقط الى أهم النقاط فى خطوط عريضة :

( ٢ ) صدر هذا الكتاب فى روما عام ١٩٦٩ وأعيد طبعه مرة أخرى عام ١٩٧١ بعنوان :

( Guidelines for a Dialogue between Muslims and Christians )

ويشتمل هذا الكتاب على كثير من الجوانب الايجابية .

( ٣ ) انظر على سبيل المثال الكتاب الذى ألّفه (John Laffin) بعنوان : خطر الاسلام (Danger of Islam) ( ١٩٧٩ ) وتمت ترجمته أيضا الى الألمانية عام ١٩٨٠ . وانظر أيضا ما تضمنه فى هذا الصدد الكتاب الذى يحمل عنوان « 1985 » من تأليف ( Anthony Burgess ) والذى صدر فى لندن عام ١٩٧٨ وأعيد طبعه بعد ذلك عدة مرات .

( ٤ ) يراجع فى ذلك كتاب بفانموللر « موجز فى أدب علوم الاسلام » من ص ١٦٨ الى ص ١٩٦ .

لقد بدأ اهتمام المستشرقين بالكتابة عن حياة محمد اعتبارا من القرن السابع عشر بعد أن كانت الكتابات السابقة فى هذا المجال كتابات جدلية كنسية تعبر عن اتجاه الكنيسة المعادى بطبيعة الحال للإسلام ولكن هدف المستشرقين الواضح والمعلن حينذاك لم يكن أيضا هدفا علميا ، بل كان محاربة الإسلام والدفاع عن المسيحية . ومن أجل هذا الغرض وجد المستشرقون أن أفضل وسيلة لمحاربة محمد تتمثل فى معرفته . ومن هنا كان لا بد من الاطلاع على القرآن ومحاولة فهمه . وقد اشتملت المؤلفات فى ذلك الوقت على أكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم والشتائم وقاحة ، وذلك جنبا الى جنب مع ذكر وقائع وحقائق تاريخية وكذلك ترجمات من القرآن الكريم .

ولعل « بولانفلييه » كان أول من تجرأ فى وسط هذا الجو القاتم - على وصف محمد صلى الله عليه وسلم بأوصاف ايجابية ، اذ قال عنه انه أداة الله التى قضى بها على العبادة الباطلة وأحل محلها العبادة الحققة .

أما عصر التنوير فى أوروبا فقد مجد محمدا ﷺ بصفة عامة . وفى عصر التنوير الفرنسى احتل محمد عليه الصلاة والسلام مكان الصدارة فى اهتمامات المثقفين وكان موضوع أحاديث الصالونات فى ذلك العصر ، لأن فولتير قد وصفه بأنه رجل عظيم جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم والواعظ ، ولعب أعظم الأدوار التى يمكن أن يقوم بها انسان على ظهر الأرض . أما التنوير الألمانى فقد كان يرى فى محمد ﷺ داعية الى الدين الطبيعى .

وقد قال كارلايل بحق : « ان الأكاذيب التى عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول محمد لا تسب أحدا غيرنا » .

وفى القرن التاسع عشر بدأ عصر المؤلفات الاستشراقية التى توصف بأنها مؤلفات تاريخية نقدية فى السيرة . وكان جوستاف فايل أول من قام بمحاولة فى هذا الصدد واعتمد على مصادر عربية وراح يبحثها بحثا نقديا ، وقام بجمع كل المؤلفات الأوروبية حول السيرة . ولكن النزعات أو الميول الأساسية الأوروبية ازاء محمد ظلت قائمة تتخللها مختلف الظلال والألوان .

وبجاناب اشبرنجر مثلا - الذى كان ينتهز كل مناسبة لتصوير

اخلاق محمد ﷺ تصويرا سيئا ما وجد الى ذلك سبيلا - كان هناك مستشرقون آخرون معتدلون نسبيا مثل نولدكه الذى كان يسعى الى « موضوعية هادئة » . ويقول نولدكه :

« ان ، حمدا كان على اقتناع بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى بهدايتهم الى العقيدة الصحيحة ولكى يجعلهم مشاركين فى السعادة السماوية » .

اما كريل فانه يقول : « يجب أن يعترف المرء بأن محمدا كان رغم كل أخطائه - مؤسس المدنية العربية وأنه قد وضع شعبه على درجة عليا من الدين » .

اما موقف بفانموللر نفسه - صاحب البحث الذى نقوم هنا بترجمته - ازاء جهود زملائه التى تضرب فى معظمها فى متاهات واسعة فيبدو أنه يميل الى أن يترك أمر هذه القضايا مفتوحا عندما يقول ان أصول نشأة الاسلام تبدو لنا اليوم بعد بحوث شاققة لا نهاية لها أكثر غموضا من أى وقت مضى .

ويتضح لنا من دراسة الكثير من المؤلفات المذكورة فى هذا البحث أن كثيرا من المؤلفين قد وضعوا لأنفسهم تصورا خاصا عن محمد صلى الله عليه وسلم يتمثل فى زعمهم بأنه ليس بنبي حقيقى ثم راحوا يحاولون اثبات تصورهم هذا بشتى الوسائل ، كما أفرغوا مفهومهم للدين على كل ما وجدوه فى الاسلام ليبيّنوا أن الاسلام ليس دينا سماويا .

ومن الأمور التى تسترعى الانتباه هنا هو ان المستشرقين الذين يكتبون عن الاسلام ونبيه لا يمثلون دائما خطأ واحدا فى جميع المسائل ، فهناك أمور يختلفون عليها ويبلغ النقاش فيها حدا بعيدا سواء من جانب المؤيدين أو من جانب المعارضين . ومن أمثلة ذلك ما ادعاه « جريمة » من أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن الا مصلحا اشتراكيا وما كان من تفنيد « سنوك هورجرونيه » لأراء « جريمة » فى هذا الصدد .

وفى ختام هذا التمهيد نود ان نشير أيضا الى أن الكتاب الذى نترجم منه هذه الفصول لا يشتمل على أية هوامش .

ومن أجل المصلحة العلمية قمنا بوضع هوامش مختلفة نعرف فيها بالكتاب أو المستشرقين الذين يتحدث عنهم المؤلف ، ونرد فيها على بعض

المزاعم أو المفتريات على الاسلام ونبيه ﷺ ، ونوضح فيها ايضا بعض المفاهيم الواردة فى ثنايا النص طالما كان ذلك ضروريا .  
ومن ناحية أخرى فان المؤلف قد قسم الموضوع هنا الى تقسيمات عامة على النحو التالى :

التراجم الحديثة لسيرة محمد :

( ا ) من بوديه الى سيل .

( ب ) التنوير الفرنسى .

( ج ) من التنوير الألمانى حتى ظهور اول كتاب تاريخى نقىدى

عن حياة محمد من تاليف جوستاف فايل .

( د ) الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد فى القرنين

التاسع عشر والعشرين .

( هـ ) كتابات شعبية عن حياة محمد .

وقد قمنا بتقسيم كل فصل من هذه الفصول الى فقرات ووضعنا لها

عناوين جانبية تحمل فى الغالب اسم المؤلف الذى تتناوله كل فقرة على حدة .

ولعلنا نكون فى ذلك كله قد وفقنا الى الصواب .

\*\*\*

ترجمة وتعليقات : التراجم الحديثة لسيرة محمد

أولا - من بوديه الى سيل

١ - ميشيل بوديه ( Michael Baudier ) :

يرجع الفضل الى ميشيل بوديه (٥) فى أنه أول من قام بوضع وصف شامل لحياة محمد بدلا من الكتابات الجذبية الكنسية . وقد كان بوديه بالنسبة لعصره - على أى حال - مؤرخا معتبرا ، كما كان كاتباً شعبياً . ويدين له الجمهور الفرنسى بالفضل لكتابه الذى استطاع أن يعرّفه فيه بالاسلام . ويباهى بوديه بحق بأنه أول من جمع هذه المادة ( المتعلقة

(٥) صدر كتاب بوديه بالفرنسية فى باريس عام ١٦٢٥ و ١٦٣٢ ثم

بعد ذلك بأكثر من قرن من الزمان فى عام ١٧٤١ تحت العنوان التالى :

( Histoire de la religion des Turcs avec la naissance, la vie et la mort de leur faux prophète Mahomet ) .

بحياة محمد ) فى صورة تاريخ كامل . ولذلك كان لكتابه أيضا تأثير يفوق الوصف على التصورات ( الغربية ) عن الاسلام وعن محمد .

ولم يكن هذا العمل - على وجه اليقين - عملا محايدا . فقد كانت غاية بودييه هى « الكشف عن أباطيل نبي الأتراك وفحشه وخدائع محمد وزيف طائفته والكشف عن تعاليمه المضحكة والوحشية » (٦) .

وقد كان بودييه كاثوليكيًا متدينا ، يستقى معلوماته من مصادر كنيسية فقط ، وكان ينقل عنها دون نقد . وبفضل كتاباته لم ير القرن السابع عشر فى محمد الا دجالا أو مضللا ، ولم تكن لدى هذا القرن الأالرغبة فى دفن محمد تحت اكوام من النقض والتفنيد .

ولكن هذا الحماس الدينى كان له أيضا جانب طيب . فلكى يستطيع المرء أن ينقص محمدا بطريقة أفضل كان لا بد للمرء أن يعرفه ، وقد كان من اللازم أن يطلع المرء على القرآن وأن يفهمه . وقد روى بودييه حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة ، والحق أنه قد جعل هناك مكانا فى كتابه لأكثر الأساطير مدعاة للسخرية وأكثر المزاعم وقاحة . أجل ، لقد أغرم بودييه برصف أعمال السلب والنهب والقسوة والفجور من جانب النبي وصفا يصل الى حد التفاصيل الجزئية (٧) .

ولكن بودييه ، فى العصر نفسه الذى تابع فيه روح موروثات العصر الوسيط ، قام بتقديم وقائع تاريخية ومعلومات تشتمل على درجة قصوى

---

(٦) لا شك أن مثل هذه الكتابات التى تعلن عن مقصدها صراحة مثل كتاب بودييه تعد أقل خطرا من تلك المؤلفات الأخرى التى لا تكشف صراحة عن مقصدها ، بل تحاول بشتى أساليب التمويه والتزويق العلمى أن تنتزع القارئ بها تريد ، ولتسنا هنا فى حاجة الى الكشف عن أباطيل بودييه . فالقارئ العادى لا يخفى عليه زيف مزاعمه . فعمله أبعد ما يكون عن الاقتراب من البحوث العلمية النزيهة التى تسعى لمعرفة الحثيقة بتجرد وموضوعية . وقد اعترف بفانموللر بأن عمل بودييه لم يكن على وجه اليقين عملا محايدا ، فهو عمل يدخل فى باب الجدل الكنسى السقيم .

(٧) كيف يقال ان بودييه قد روى حياة محمد بدرجة لا بأس بها من الدقة وهو فى الوقت نفسه قد أفسح فى كتابه مكانا لأكثر المزاعم وقاحة وأكثر الأساطير مدعاة للسخرية ؟ هذان أمران لا يجتمعان ، فاما دقة وموضوعية واما مزاعم وقحة وأساطير مضحكة . أما هذا الخلط الغريب فانه يعد استهانة بعقلية القارئ .

من الدقة والثراء - أجل ، ان الأمر الأهم من ذلك هو انه قام بوصف تعاليم جوهرية للديانة المحمدية بعبارات واضحة ، وبرز كيف تتم مراعاة الزكاة والاحسان فى بلاد العرب مراعاة كبيرة . وعلى الجملة فانه قد جعل الجمهور يتعرف بطريقة مفهومة تماما على قطب الرحى الذى يدور عليه دين الأتراك كله .

ويستطيع المرء ان يطلق على نصف الكتاب انه ترجمة فرنسية للقرآن . ويعد ان تحدث بوديبه عن محمد وعن أعماله وعما يسميه بالتدرج الدينى فى الرتب ( **Hierarchie** ) لدى المسلمين ، يسعى بوديبه الى توسيع نطاق عمله التفنىدى كله فى خطوط ثابتة لكى يواجه سم الأتراك بسم مضاد . وتحت العنوان العام « للحاديث محمد » يصف بأسهاب المواضع القرآنية التى أفسد فيها النبى الزائف الديانة المسيحية . ولكن لكى يجعل بوديبه الخديعة أو التضليل واضحا بقدر الامكان أمام الجمهور فانه يقتبس آيات من القرآن بجانب نصوص من الكتاب المقدس . وعلى هذا النحو يتعرف القارئ على الأسس الرئيسية لتعاليم محمد عبر كل صفحات الكتاب .

\* \* \*

## ٢- ادوارد بوكوك ( E. Pococke ) :

وفى حين كان بوديبه ينقل بأمانة عن المصادر الكنسية القديمة فقط ، فقد قام المستشرق الشهير ادوارد بوكوك (٨) ( ١٦٠٤ - ١٦٩١ ) - الذى

---

(٨) ادوارد بوكوك ( ١٦٠٤ - ١٦٩١ ) درس اللاهوت فى أكسفورد وتعلم العربية فى حلب ، وأصبح أستاذا للعربية والعبرية فى أكسفورد عام ١٦٣٦ . وكتابه الذى يتحدث عنه بفانمولر هنا هو « لمع من تاريخ العرب » ( ١٦٥٠ ) : ( **Specimen Historiae Arabum** ) وقد اعتمد فيه على كتاب بالعربية لابن العبرى . وفى عام ١٦٦٣ أخرج نشرة كاملة بالعربية لكتاب « مختصر تاريخ الدول » لابن العبرى ( غريفوريوس أبو الفرج ١٢٢٦ - ١٢٨٩ ) الذى كان رئيس اليعاقبة فيما كان يعرف قديما بالملكة الفارسية . وقد كتب ابن العبرى هذا الكتاب بالعربية ، وهو يشكل الجزء الأول من كتاب له فى التاريخ العام بالسريانية فى ثلاثة مجلدات . ( راجع : دائرة المعارف الاسلامية ) مادة : ابن العبرى . وراجع ايضا : ( **J. Fueck : Die Arabischen Studien in Europa** , p. 88f. Leipzig 1955 ) .

استطاع أن يحوز على معرفة واسعة باللغة العربية أثناء إقامته الطويلة في الشرق - قام بنشر مصدر عربي عن حياة محمد ، لكنه مصدر مكتوب في تاريخ حديث ، ومن أجل ذلك فإن قيمته ضئيلة من وجهة النظر التاريخية ( ص ١٣٢ ) ( ٩ ) .

ولكن أهمية هذا الكتاب تتمثل في أن المرء قد أصبح أخيرا على وعى بأنه يتحتم الرجوع الى مصادر عربية أساسية لكي يمكن الوصول الى نظرة أكثر موضوعية الى محمد وتعاليمه . وقد اشتمل عمل بوكوك على هوامش مسهية واستطرادات تشهد بعلمه الغزير . وقد تم في العصر التالي استغلال هذا الكتاب الى أقصى حد من جانب كل هؤلاء الذين كتبوا عن محمد وعن التاريخ العربي .

\* \* \*

### ٣ - هوتنجر ( Hottinger ) :

في كتابه تاريخ الشرق « Historia Orientalis » حاول يوهان هينريش هوتنجر (١٠) ( ١٦٢٠ - ١٦٦٧ ) الذي تخرج بوصفه مستشرفا في كل من جروننجن وليدن ثم أصبح أستاذا لتاريخ الكنيسة واللغات الشرقية في زيوريخ - حاول تصوير الحياة والطبيعة الشرقية المتعددة الجوانب بقدر الامكان . وقد قدم فيه تاريخا مفصلا نسبيا للعرب ، وقدم فيه بوجه خاص أيضا تاريخ محمد وما يتصل به . وذلك كله في شكل أكثر غزارة وثراء مما كان قائما حتى ذلك الحين .

(٩) يحيل بفانمولر هنا الى ص ١٣٢ حيث يشير هناك الى أن أول المصادر العربية التي رجع اليها الكتاب الغربيون في الكتابة عن محمد صلى الله عليه وسلم كان كتاب ابن العبري المشار اليه وكتاب أبي الفداء الذي نشره جانييه ( سيأتي الحديث عنه في هذا البحث أيضا ) ، وأشار بفانمولر الى أن المصادر العربية الأقدم عهدا من هذين الكتابين لم تكن معروفة حتى ذلك الحين للعلماء الأوروبيين .

(١٠) هوتنجر : مستشرق سويسري ، كان أستاذا للغات السامية في كل بن زيوريخ وهايدلبرج . وقد صدر كتابه المشار اليه في زيوريخ عام ١٦٥١ وأعيد نشره عام ١٦٦٠ . ومن أعماله أيضا : فهرس المصنفات الشرقية ، ومعجم مختلف اللغات ، والأتار الشرقية ، ومجموعة مباحث شرقية .

وقد كان كتاب هوتنجر - الذى اعتمد فيه كثيرا على كتاب بوكوك المشار اليه ( Specimen ) يشكل بجانب كتاب بوكوك من الآن فصاعدا ولفترة طويلة ينبوع لتاريخ العرب . ولكن هوتنجر يرى فى مقدمة كتابه أن من الضرورى أنه يجب عليه أن يعتذر لقيامه بتقديم عرض لحياة محمد وتعاليمه . ولكى يبرر عمله هذا يستشهد بعلماء من أمثال ( بوللينجر Bullinger ) و ( ميكوتيسوس Myconius ) و ( بيلياندر Bibliander ) ، وكذلك يستشهد بالشخصيات المعاصرة الشهيرة من أمثال ( لامبرور L'Empereur ) الأستاذ بجامعة ليدن .

وبالإضافة الى تشجيع ( تقدم ) التفسير والدفاع ( ١١ ) والتاريخ العام فقد كان هوتنجر يستهدف الوصول الى غايتين :

فقد حدث أن اتهم الروم الكاثوليك دعاة الاصلاح ( الدينى ) بالسير فى خفاء وراء المذهب المحمدى . وقد رد هوتنجر هذا الاتهام وأثبت فى فصل خاص - على سبيل المثال - أن حجج ( بيلارمين Bellarmin ) ( ١٢ ) فى الدفاع عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية مستقاة من علم العقيدة الإسلامى .

وبجانب ذلك يريد هوتنجر - كما سبق أن فعل ( بيلياندر Bibliander ) فى عصر لوثر - أن يسهم فى محاربة خيانة المحمديين وغدرهم ومحاربة السيادة التركية . ويعتقد هوتنجر أن تفيد الديانة التركية يعد أيضا بمثابة توجيه ضربة للسيادة التركية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان يسود لدى هوتنجر السعى نحو انصاف الاسلام وانصاف مؤسسه بقدر الامكان .

\* \* \*

٤ - الكسندر روس ( A. Ross ) :

وبعد ظهور كتاب هوتنجر « تاريخ الشرق » بعامين ظهر فى انجلترا فى عام ١٦٥٣ أول كتاب فى تاريخ الأديان العام من تأليف الكسندر روس

---

( ١١ ) المقصود هنا تفسير الديانة المسيحية والدفاع عنها .

( ١٢ ) روبرت بيلارمين ( ١٥٤٢ - ١٦٢١ ) كاردينال يسوعى ، كان فى طليعة المهاجمين للاصلاح الدينى الذى تم على يد مارتن لوثر وأتباعه .

تحت عنوان التقديس الشامل أو ( Pansebeia ) ، وقد ترجم  
 أيضا الى الألمانية بعد ذلك بخمسة عشر عاما (١٣) .  
 ولم يبد روس فى هذا الكتاب الجامع الا قليلا من التعاطف مع  
 اشكال المعتقدات الأجنبية ، ولم يبق لديه من هذا التعاطف بالنسبة  
 للاسلام بوجه خاص الا اقل القليل . صحيح أنه يبرهن فى فصل خاص  
 على أن محمدا لم يكن العدو الكبير للمسيح الذى تحدث عنه كل من بولس  
 فى الاصحاح الثانى من رسالته الثانية الى أهل تسالونيكى وكذلك يوحنا  
 فى سفر الرؤيا . ولكن روس رغم ذلك لا يريد ان ينكر « أن محمدا كان  
 عدوا للمسيح لانيانه بتعاليم قام بترويجها تعارض الوهية المسيح » .

\* \* \*

#### ٥ - ماراتشى ( Marracci ) :

وقد قدم ماراتشى فى كتابه « الرائد فى تفنيد القرآن » نظرة على  
 حياة وأعمال محمد مؤلف القرآن .  
 وقد حاول جاهدا - كما فعل بوكوك وهوتنجر - أن يرجع الى  
 مصادر عربية . ويعبر ماراتشى هنا عن الغاية من وصفه لحياة محمد على  
 النحو التالى :

« اذا اردت أن تصور حياة محمد حسبما كتب فى ذلك  
 مؤلفونا وكتابنا فساجعل نفسى مدعاة للسخرية لدى المحمديين . فالفرق  
 كبير جدا بين ما يروونه وما نرويه نحن لدرجة أن المرء لا يمكنه أن يصدق  
 ان كلا الجانبين يتناول بالحديث رجلا واحدا . ومن أجل ذلك فاننى أريد  
 أن أتابع أولئك ، ليس لأنى آخذ كل شىء على أنه حق ، بل لأننا اذا  
 تناولنا عدو الدين بالنقض والتفنيد فان محاربته بأسلحته هو أفضل من  
 محاربته بأسلحتنا ، وحينئذ يسهل التغلب عليه .

وبالإضافة الى ذلك فان كثيرا من كتابنا يروون عن محمد أشياء  
 تثير الضحك لدى المحمديين ، ولا تجدى الا فى زيادة تقويتهم فى  
 خرافاتهم . وعلى ذلك فاننى سأعتمد فى الحديث عن حياة محمد على  
 أكثر المؤلفين العرب قدرا . واذا كنت على علم أيضا بأن هؤلاء يأتون  
 بالكثير من الأكاذيب لاعلاء شأن نبيهم الزائف فاننى لن أجعلهم يعتبروننى  
 كاذبا » .

(١٣) نشرت الترجمة الألمانية فى هايدلبرج بألمانيا عام ١٦٦٨ تحت

عنوان : « العبادات المتباينة فى العالم كله » .

وعلى الرغم من أن ماراتشى - بناء على احاطته بالمصادر العربية قد استطاع أن يثبت أخطاء كثيرة لأسلافه فى محاربة محمد فان محمدا قد ظل لديه هو النبى الزائف والمضلل والغاصب ومؤسس طائفة تثير الاشمئزاز ومؤلف كتاب مملوء بالتناقضات والخرافات الكاذبة والاباطيل (١٤) .

\*\*\*

## ٦ - بريديو ( H. Prideaux ) :

واذا كان ماراتشى قد كتب ما كتب بوصفه مجادلا كاثوليكيا واضحا ، له عرض أساسى يتمثل فى الدفاع عن المسيحية فى مقابل الديانة المحمدية ، فان العالم «دين همفرى بريديو» قد أراد بوصفه لحياة محمد أن يقدم للمؤلفين الطبيعيين ( Deisten ) فى عصره مرآة يرون فيها أنفسهم . ويصور محمدا ليس بوصفه أكبر الدجالين فحسب ، بل بوصفه أيضا أحد المجرمين (١٥) . وحياة محمد ينبغى أن تكون بمثابة انعكاس لصورة

(١٤) لقد كان ماراتشى أحد رجال اللاهوت الايطاليين . أمضى حياته كلها فى اعداد دراسات هدفها البرهنة - كما يزعم - على بطلان الاسلام وحقيقة الديانة المسيحية . وقد صدر كتابه فى « تفنيد القرآن » عام ١٦٩١ وقدم فيه أيضا لمحة عن حياة محمد ، ثم نشر النص العربى الكامل للقرآن عام ١٦٩٨ مع ترجمة لاتينية مصحوبة بهوامش كثيرة ومحاولة فاشلة لنتقض القرآن نقرة نقرة . وينطلق ماراتشى فى دراساته - مثلما يفعل غيره من اللاهوتيين ومعلم المستشرقين - من فرضية يضعونها كأنها حجة مسلمة ويبنون عليها كل مزاعمهم . وتتمثل هذه الفرضية فى أن محمدا ليس نبيا حقيقيا وأنه هو الذى قام بتأليف القرآن . وقد سبق أن فعل الشيء نفسه مشركو مكة . وقد وصف « بنامولر » نفسه موثقًا ماراتشى (ص ١١٦ ) بأنه « نفور داخلى ازاء محمد وتعاليمه » فكيف ينتظر منه - وقلبه ملىء هكذا بالحق على الاسلام - أن يكون منصبا للاسلام ونبية ؟ وأين ذلك من تعاليم القرآن - التى لا بد أنه قد اطلع عليها - والتى تتمثل فى الانصاف المطلق الذى يعلو فوق كل اعتبار : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » - ( المائدة : ٨ ) .

(١٥) همفرى بريديو ( ١٦٤٨ - ١٧٢٤ ) مستشرق انجليزى ، له دراسات عن ابن ميمون وعن العهدين القديم والجديد وصلتهما بتاريخ اليهود . وكتابه عن « حياة محمد » صدر فى لندن عام ١٦٩٧ وصدر بالفرنسية فى

مزعجة للكفار والملحدين والمؤلهين الطبيعيين والاباحيين . وقد أراد بريدو ان يكون كتابه مجرد جزء من تاريخ الكنيسة فى الشرق وان يثبت فيه ان النبى كان بمثابة سوط الله لمعاقبة الكنائس الشرقية وحملها على التوبة النصح .

\* \* \*

#### ٧ - بولانفلييه ( Boulainvilliers ) :

وفى حين كان كل من ماراتشى وبريدو يرى فى محمد اكبر المضلين فقد ذهب الكونت بولانفلييه الى اقصى الطرف الآخر . وهنا يظهر لا بوصفه مؤرخاً ، بل يظهر كمادح وكاتب روائى . وقد كان غرضه الواضح هو - ان يرفع من شأن الاسلام على حساب المسيحية - ومن اجل هذه الغاية عرض محمداً بوصفه انساناً وأداة من خلالها ارتفعت العبادة الباطلة وحلت محلها العبادة الحقّة . وقد مدح محمداً بأنه كان حكيماً قام بتمدين شعبه وبأنه كان أداة من أدوات الله وبأنه أتى بدين عقلى (١٦) .

\* \* \*

#### ٨ - جاننييه ( J. Gagnier ) :

وقد حاول جان جاننييه - أستاذ اللغات الشرقية فى اكسفورد وخليفة بوكوك - ان يتجنب هذين الجانبين المتطرفين ، وذلك بوصفه لمحمد كما تظهره المصادر العربية . وفى عام ١٧٢٣ نشر حياة محمد لابى الفداء (١٧) . ( ١٢٧٣ - ١٣٣١ ، انظر ص ١٢٨ ) بالعربية

استوكهولم عام ١٦٩٨ . ويصف نجيب العقيقى هذا الكتاب بأنه « ترجمة تافهة لا غناء فيها » . ويصف بفانموللر ( ص ١١٦ ) موقف بريدو من محمد صلى الله عليه وسلم بنفس الوصف الذى وصف به موقف ماراتشى « النفور الداخلى ازاء محمد وتعاليمه » . وفى موضع آخر يصف موقفهما بأنه « حماس حقود » ( ص ١١٧ ) .

ومن هنا ينطبق على ( بريدو ) ما ورد فى الهامش السابق .

(١٦) انظر ما ذكرناه عن بولانفلييه فى العدد الأول من مجلة

مركز بحوث السنة والسيرة ص ٨٣ هامش رقم ١ .

(١٧) أبو الفداء : هو اسماعيل بن على الأيوبى ، ولد عام ٦٧٢ هـ

فى دمشق ، تولى إمارة حماة وكان له نشاط علمى ملحوظ . وأهم مؤلفاته

واللاتينية مع مقدمة وهوامش تدل على سعة علمه . ولكن جانبيه قام -  
بناء على طلب العديد من الشخصيات المعروفة التي أرادت أن تتعرف على  
محمد بالتفصيل ولم تكن تستطيع القراءة بالعربية أو اللاتينية - قام بتأليف  
كتاب عن محمد بالفرنسية .

وقد خصص جانبيه مقدمة هذا الكتاب بصفة رئيسية لتفنيد آراء  
بولانفلييه ( ١٨ ) . أما الكتاب نفسه فانه يعتمد اعتماداً دقيقاً على المؤلفين  
العرب ويجعلهم يتحدثون بأنفسهم . أجل ، لقد احتفظ جانبيه بخشوع  
نبرة حديثهم ، ولم يمدح أو يلوم على الاطلاق ، ولم يصف شيئاً من  
عنده . فهو لا يريد أن يصف محمداً كما كان ، بل يريد فقط أن يجعل  
الأوروبيين يتعرفون على ما يرويه ويعتقده المسلمون الأصوليون !

ولكنه قد سار في هذا العمل بكثير من المهارة والذوق لدرجة ان كتابه  
قد اعتبره جميع العارفين منذ ذلك الوقت أفضل ما كتب عن سيرة محمد ،  
وقد اغترف منه كثيراً أو قليلاً كل المؤرخين المتأخرين ممن كتبوا عن حياة  
محمد ( ١٩ ) .

\* \* \*

كتابه « مختصر تاريخ البشر » الذي اهتم به جانبيه وغيره من المستشرقين .  
وفى هذا الكتاب قسم عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وله أيضاً  
كتاب « تقويم البلدان » في الجغرافيا . وقد وصف جورج سارتون أبا الفداء  
بأنه كان « أعظم جغرافي في عصره » . وفى ص ١٢٨ التي يحيل اليها  
بفانوللر يذكر عدداً من المؤلفات الأوروبية التي اهتمت بكتاب أبى الفداء فى  
التاريخ .

( ١٨ ) عندما نشر بولانفلييه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل  
ملته أنه يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم بوصفه رسول العناية الالهية .  
وقد اشترك جانبيه فى الحملة ضد بولانفلييه كما هو واضح .

( ١٩ ) ربما يعطى ما ورد هنا عن جانبيه انطباعاً بأنه كان منصفاً حقاً  
لمحمد صلى الله عليه وسلم . ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً . فقد اعترف  
بفانموللر فى موضع آخر ( ص ١١٧ ) بأن جانبيه قد وصف محمداً فى  
مقدمة كتابه بأنه أكثر الناس شراً وبأنه عدو لدود لله ، ثم أضاف بفانموللر  
الى ذلك قوله : من هذا يتبين لنا ماذا يفهم المرء من « حياده » . راجع تعليقنا  
على موقف جانبيه فى العدد الأول ص ٨٤ هامش ١ .

#### ٤ - جورج سيل ( G. Sale ) :

وبعد مرور عامين على ظهور كتاب حياة محمد لجانييه ظهرت فى عام ١٧٣٤ الترجمة الشهيرة للقرآن التى قام بها جورج سيل ( انظر ص ٢١٦ ) ( ٢٠ ) وفى « المقدمة التمهيدية » التى تدل على سعة الاطلاع حاول سيل أن يكون منصفاً لمحمد . فلم يكن محمد ابداً - فى رأيه - واحداً من أمثال جبابرة الملحدين كما يتصوره المسيحيون عادة . والضرر الذى الحقه محمد بالمسيحية ينسب الى جهله أكثر مما ينسب الى خبثه ( ٢١ ) .



#### ١٠ - ايرهاردت ( J. Ehrhardt ) :

وهناك كتيب من تأليف ياكوب ايرهاردت كان يعد بالنسبة لعصره جهداً جديراً بالاعتبار نقد فيه الأخطاء الأساسية للكتاب المعدودين وغير:

( ٢٠ ) يحيل بفانمولر هنا على ص ٢١٦ حيث تحدث هناك عن ترجمة سيل للقرآن من حيث كونها كانت وسطاً بين الترجمة الحرفية والترجمة الحرة ، ويشير الى ما فيها من تصور ثم يتحدث عن محتويات « المقدمة التمهيدية » التى كان لها صدى بعيد .

( ٢١ ) يزعم المستشرقون واللاهوتيون أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يعرف التعاليم « الصحيحة » للمسيحية وبنى معارضته للتعاليم المسيحية على ما عرفه من صورة زائفة كانت شائعة حينذاك . ويعبر مستشرق معاصر هو « رودى بارت » عن ذلك بقوله : لقد كانت معلومات الناس عن المسيحية فى مكة فى العصر الذى عاش فيه محمد معلومات محدودة وناقصة ، ولم يكن المسيحيون العرب يسلكون النهج الصحيح فى معتقداتهم ، وكانت تروج هناك آراء بدعية منحرفة . ولولا ذلك - كما يزعم بارت - لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التى تنكر صلب المسيح وتذهب الى أن نظرية التثليث لا تعنى الآب والابن وروح القدس ، وإنما تعنى الله وعيسى ومريم الخ ( راجع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ وما بعدها ) . وهكذا ينكر المستشرقون أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد تلقى معلوماته عن المسيحية من أعلى عن طريق وحى سماوى أراد الله به أن يصحح العقائد التى أفسدتها عقول البشر على مر العصور .

المعدودين فى عرضهم لتاريخ محمد ، وكشف فيه عن أسباب ذلك ( ٢٢ ) .  
فهو يتناول - على سبيل المثال - الأخطاء المتعلقة بالترتيب الزمنى  
والأخطاء الجغرافية والأغلاط والأساطير المتعلقة بمعلمى محمد ، ويتناول  
أعمال السلب والنهب واللصوصية التى نسبت اليه ، وما يقال عن معجزاته  
وصورته ومرضه بالصرع وغير ذلك .

\* \* \*

ثانيا : عصر التنوير الفرنسى

● فولتير ( Voltaire ) :

بعد تسع سنوات من ظهور حياة محمد لجان جانبيه عرضت فى عام  
١٧٤١ مسرحية فولتير الشهيرة « التعصب أو محمد النبى » أول مرة فى  
( ليل Lille ) . وفى هذه المسرحية يصف فولتير النبى بنفس  
الطريقة القديمة بوصفه منافقا عديم الحياء ودجالا ، ومستبدا تحركه  
الشهوات الحسية ووغدا متعطشا للدماء ( ٢٣ ) .

ولم يكن فولتير يريد بمسرحيته اطلاقا أن يصف محمدا كما يعرفه  
التاريخ ، وانما استخدمه فقط لكى يحول دفة الحديث ضد المسيحية  
الكاثوليكية وضد خداع القساوسة والخرافات ، وضد الدين نفسه وما يرتبط  
به ضرورة من نزعة التعصب .

---

( ٢٢ ) ظهر كتاب ياكوب ايرهارت فى مدينة أولم بألمانيا عام ١٧٣١  
باللغة اللاتينية بعنوان : « حول أخطاء الكتاب المشهورين وغير المشهورين  
فى عرض تاريخ محمد وأسباب ذلك » .

( ٢٣ ) لم يكن فولتير ( ١٦٩٤ - ١٧٧٨ ) - وهو أديب فرنسا الشهير  
وتطب عصر التنوير الفرنسى - لم يكن يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم فى  
حقيقة الأمر بكل هذه الأوصاف ، كما يشير الى ذلك بفانموللر عقب ذلك  
مباشرة ، بل كان يعنى المؤسسة الكاثوليكية بكل ما تمثله . وأقل ما يمكن أن  
يصف به المرء موقف فولتير هنا هو أنه نفاق كريبه وتضليل متعمد وعمل  
لا أخلاقى . وقد عدل فولتير من موقفه بعد ذلك ونعت محمدا صلى الله عليه  
وسلم بكل أوصاف التمجيد والاكبار . ومن حسن الحظ أن هذا الموقف الأخير  
هو الذى ذاع وانتشر فى الأوساط الثنائية فى فرنسا آنذاك كما يشير الى  
ذلك بفانموللر أيضا .

وبجانب هذه الصورة لمحمد نجد لدى فولتير صورة أخرى فى مقالته الشهيرة عن الأخلاق ( Essai sur les moeurs ) . فى هذه المقالة لم يعد محمد يظهر بوصفه « كبير المنافقين » ، بل بوصفه الرجل العظيم وبوصفه ( كرومويل Cromwell ) ( ٢٤ ) آخر ، جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والحاكم الواعظ ، ولعب اعظم الأتوار التى يمكن أن يلعبها انسان على ظهر الأرض . وهنا نجد فولتير معتمدا بوضوح على بولانفلييه .

\* \* \*

### ● اثر كتابات فولتير فى الأوساط الثقافية :

لقد قرأ الكثيرون مقالة فولتير ( فى الأخلاق ) بحماس . وسرعان ما أصبح محمد موضوعا للأحاديث فى صالونات العصر . وبعض المتخلفين عن الركب فقط مثل ( ديدرو Diderot ) فى كتابه « رسائل الى صوفى فولاند » تجرأ على القول بأن محمدا كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل ( ٢٥ ) . وفى مقابل هذه الآراء القديمة دأب الموسوعيون واصدقاؤهم على تكرير صيغ فولتير مع مبالغات مماثلة .

وعلى الرغم من اعجاب ديدرو الخفى بمحمد فإنه يصفه بأنه مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة . وقد أتى الجماعون ( Kompilatoren )

( ٢٤ ) أوليفر كرومويل ( ١٥٩٩ — ١٦٥٨ ) رجل دولة انجليزى عظيم وتائد جيش شهير ، وضع حدا للحرب الأهلية فى انجلترا آنذاك ، وقاد حروبا ناجحة ضد هولاندا واسبانيا وبذلك نهض بقوة انجلترا البحرية والتجارية . وكان أيضا من أتباع المتطهرين المتشددين ، وهم البروتستانت الانجليز الذين أرادوا أن يعيدوا للكنيسة طهارتها بتخليصها من كل أخطاء الكاثوليك .

( ٢٥ ) دينيه ديدرو ( ١٧١٣ — ١٧٨٤ ) أحد أعلام الكتاب فى عصر التنوير الفرنسى ، كان رئيس تحرير دائرة المعارف الفرنسية الشهيرة ومؤلف العديد من مقالاتها . وله العديد من الروايات والمسرحيات الفكاهية ووصفه هنا للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه « كان أفضل صديق للنساء وأكبر عدو للعقل » بجانب وصفه له بعد ذلك بأنه « مشرع ماهر ورسول من رسل الفضيلة » يدل على التخطي والتناقض ، إذ كيف يوصف الماهر الداعى الى الفضيلة بأنه عدو للعقل ؟ ومن ناحية أخرى فإن من المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالنساء حرا فى حديث مشهور . وهذا أمر يحسب للإسلام لا عليه .

أو الكتاب المرلعون بالجمع - كما يحدث دائما - لكي يستغلوا هذه الشهرة الجديدة . وهكذا قام ( توربين Turpin ) بتعريف جمهوره - فى مجلدات تفتقد الأصالة لكنها مكتوبة بأسلوب سهل - بهذا الفيلسوف ( يقصد محمدا ) الذى ثقفته الطبيعة والمشرع الذى لم يعتمد على عون من جانب العلوم .

وقد بدأت الأكاديميات نفسها التى تأثرت بالحركة ( الجديدة ) بدأت فى تنافسها على وضع محمد كموضوع للمديح . وقد كان ذلك هو التندشين الرسمى لانتصار محمد .

وهكذا وضعت « أكاديمية النقوش والآداب » موضوعا للمسابقة بعنوان « زرادشت وكونفوشيوس ومحمد : مقارنتهم بوصفهم أصحاب مذاهب ومشرعين وأخلاقين » . وقد فاز فى هذا الصدد ( باستوريت Pastoret ) .

وفى عام ١٨٠٥ أعلن قسم التاريخ والأدب الكلاسيكى بالمعهد عن مسابقة موضوعها : « تأثير محمد أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة » . وقد حصل أحد الألمان وهو ( أولزنىر Oelsner ) على أحد جوائزها .

ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ الجميع يقرأون القرآن الكريم وقد امتدح المرء أفكار محمد السياسية ونظرياته الأخلاقية ونظامه التشريعى . وأخيرا قدم سافارى ترجمة جديدة للقرآن ( انظر ص ٢١٥ ) ( ٢٦ ) .

\*\*\*

---

( ٢٦ ) يحيل بفانبوللر هنا الى ص ٢١٥ حيث أشار هناك الى ترجمة سافارى للقرآن التى ظهرت فى باريس عام ١٧٨٣ وجاءت عقب ترجمات سيئة أخرى تركت فى النفوس انطباعات سيئة عن القرآن ومضمونه وأسلوبه الخ .

ثالثا : من عصر التنوير الألماني الى ظهور أول كتاب تاريخي  
نقدى عن حياة محمد من تأليف جوستاف فايل

١ - ليبنتز ( Leibniz ) :

لقد امتدح ممثلو عصر التنوير الألماني محمدا بوصفه داعية للدين الطبيعي . وكتب ليبنتز(٢٧) - على سبيل المثال - فى مقدمة كتابه « فى العدالة الالهية » يقول : « لم يبتعد محمد أيضا من هذه التعاليم العظيمة للدين ، وقد قام أتباعه بنشرها بين الشعوب فى أقصى بلاد آسيا وافريقيا ، تلك البلاد التى لم تكن المسيحية قد دخلتها بعد . وقد قضاوا فى كثير من البلاد على الخرافات والمعتقدات الوثنية التى كانت تقف موقفا معارضا للتعاليم الحقبة التى تتمثل فى وحدة الله وخلود النفس » .

\* \* \*

٢ - ليسنج ( Lessing ) :

أما ليسنج(٢٨) فإنه يعبر فى أحد أعماله « انقاذ هيرونيوموس كاردانوس » عن الاقتناع « بأن الأخبار التى كانت معروفة فى عصر ( كاردانوس Cardanus ) ( ٢٩ ) عن محمد وتعاليمه كانت أخبارا قاصرة

( ٢٧ ) جوتفريد فلهم ليبنتز ( ١٦٤٦ - ١٧١٦ ) فيلسوف ألماني شهير ، كان صاحب عقلية موسوعية نادرة وكانت له جهود وابتكارات فى مجالات علمية وفلسفية عديدة ، وهو صاحب نظرية الذرات الروحية فى الفلسفة وهى نظرية تقول بأن الكون مؤلف من جواهر بسيطة روحية كل منها يمثل الوجود كله .

( ٢٨ ) ليسنج « جوتسهولد افرام » ( ١٧٢٩ - ١٧٧٨ ) من أعظم أدباء ألمانيا فى القرن الثامن عشر ، عمل على تحرير الشعر الألماني من الاعتماد على النماذج الفرنسية . وقد أصبح أسلوبه نموذجا يحتذى فى النثر الأدبى . كتب عددا من المسرحيات النكاهية وله أعمال أدبية أخرى مشهورة .

( ٢٩ ) كاردانوس ( ١٥٠١ - ١٥٧٦ ) طبيب إيطالي وعالم فى الرياضيات ، كتب سيرة حياته بنفسه ، وله جهود فى مجال الرياضيات معروفة باسمه .

جدا وممزوجة بألف من الأكاذيب التي كان المجادلون المسيحيون مولعين بأخذها على أنها حقائق ، إذ أنهم بذلك يكون لديهم لعبة اسهل . ولم تصل اليها معرفة امينة عن ذلك - أى عن محمد وتعاليمه - قبل مؤلفات كل من ريلاند وسيل ، تلك المؤلفات التي أطلعنا فى الأغلب على أن محمدا ليس دجالا عابثا ، وأن دينه ليس مجرد نسيج من الأباطيل والمتناقضات المرصوفة بجوار بعضها » .

وفى « شذرات فولفنبوتل » يرجع ليسنج تعاليم محمد الى الدين الطبيعى كما فعل ليبنتز :

« صحيح أن قرآن محمد والعقيدة التركية لهما لدينا سمعة سيئة ، وليس ذلك فقط لأن مؤسس هذا الدين قد استخدم التضليل والعنف . بل لأن هناك أيضا ( فى هذه العقيدة ) كثيرا من الحماقات والأضاليل مختلطة ببعض العادات الخارجية الوافدة التي لا ضرورة لها ( ٣٠ ) . ولست أريد أيضا أن أتحدث باسمه - أى باسم محمد - ، وأقل من ذلك كثيرا أن أرفع من شأنه على حساب الديانة المسيحية . ولكنى على يقين من أن هناك من بين من يحملون الديانة التركية مسئولية هذا أو ذاك من الأخطاء قلة قليلة جدا ممن اطلع على القران . وأن هناك أيضا قلة قليلة جدا من بين هؤلاء الذين قرأوه كان لديهم القصد لاعطاء كلمات ( القران ) معنى معقولا يمكن للمرء أن يفهمه . وفى وسعى - اذا كان هذا مقصدى الأساسى - أن أبين أفضل ما فى الدين الطبيعى من القران معروضا بوضوح ومعبرا عنه الى حد ما تعبيرا جميلا » .

« وأعتقد أننى سأجد بسهولة الاستحسان فى ذلك لدى الفاهمين اذا قلت ان كل شيء جوهرى فى تعاليم محمد يكاد ان يؤدي الى الدين الطبيعى . وقد امتدح العالم (توماس هايد Thomas Hyde ) ( ٣١ ) فى

---

( ٣٠ ) على الرغم من أن ليسنج قد تحدث حديثا طيبا عن الاسلام بعد هذه العبارات الا أنه فى هذه العبارات السابقة يخلط - كما يفعل غيره كثيرون أيضا - بين الاسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة للأتراك العثمانيين فى ذلك الزمان . وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال حينذاك ذات قوة مؤثرة فى العالم ، وكانت أوروبا لا تزال تخشى بأسها وتحسب لها ألف حساب .

( ٣١ ) توماس هايد ( ١٦٣٦ - ١٧٠١ ) ، مستشرق انجليزى ، كان أستاذا للعربية والعبرية فى أكسفورد .

كتابه ( تاريخ ديانة الفرس القدماء واصحاب مذاهب السحر ، ١٧٠٠ ، ص ٣٣ ) وهو من العلماء الذين يتحتم على المرء ان يعدهم من العارفين وان يعدهم كذلك من المحايدين - امتدح محمدا بوصفه مجددا للدين الحقيقى لابراهيم » .

« وأما جورج سيل - الذى يعد أوثق المترجمين والمفسرين للقرآن - فانه يبين فى مقدمته للقرآن ان مبدا تعاليم محمد يقوم على توحيد الله او على حقيقة أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد هناك الا اله واحد ، وان القصد الذى يتمثل فى نقل العرب المشركين من الوثنية الى معرفة الله الواحد كان قصدا نبيلًا ومحمودا جدا ، وأن السيد « بريديو » قد زعم بلا سبب أن محمدا قد أتى للعرب بدلا من الوثنية بدين سئ مثل الوثنية . ويقول السيد « سيل » بأن الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل التى يشتمل عليها القرآن ، وبصفة خاصة الحث على عبادة اله واحد حق تعد أمورا ممتازة الى حد ما لدرجة أن المسيح يود أن يراعيها حقا » .

وفى بداية السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر فى الوقت نفسه تقريبا عالمان المانيان بترجمتين للقرآن من النص الأصيل قضيا فى اعدادهما زمنا طويلا وهما ( دافيد فريديش ميگرلين Megerlin ) و ( فريديش ايرهارد بويزن Boysen ) ( ص ٢١٧ ) ( ٣٢ ) . وقد ثبت ان جوته قد استخدم ترجمة اولهما .

\*\*\*

٣ - جوته ( Goethe ) :

وقد اهتم جوته (٣٢) اثناء حياته كلها اهتماما كبيرا بمحمد ، كما بين ذلك ( ياكوب مينور Minor ) بالتفصيل فى كتابه « محمد لدى

(٣٢) أشار بفانمولر فى ص ٢١٧ الى هاتين التريجتين ، وذكر ان الترجمة الأولى قد ظهرت عام ١٧٧٢ واعتمد فيها ميگرلين بجانب النص الأصيل على تريجمات سابقة فى لغات أخرى . أما الترجمة الثانية فقد ظهرت عام ١٧٧٣ ، ويرى بفانمولر أنها أفضل من الترجمة الأولى .

(٣٣) يوهان فولفجانج فون جوته ( ١٧٤٩ - ١٨٣٢ ) يعد أعظم شعراء ألمانيا على الإطلاق ، كان منصفا للشرق وللإسلام وبنيه عليه الصلاة والسلام ، قرأ القرآن وتأثر به واقتبس منه الكثير وبخاصة فى الديوان الذى أطلق عليه اسم « الديوان الشرقى الغربى » .

جوته « (٣٤) وفي خريف عام ١٧٧٣ ظهر « نشيد محمد » وفيه يفارن جوته محمدا بنهر ينمو باستمرار ويجذب فى سيره اخوته معه الى الاب خالد .

وفى كتابه « الشعر والحقيقة » يقول جوته ان هذا النشيد المدحى كان قد قصد به فى الأصل ان يكون اضافة شعرية لمسرحية عن محمد كان قد خطط لها . وقد كان يريد أن يصور فيها كيف تؤثر العبقرية فى الناس عن طريق الأخلاق والعقل ، وكيف تنتصر العبقرية فى ذلك وكيف تخسر .

وفى عام ١٧٩٩ عاد جوته مرة أخرى الى الاشتغال بموضوع محمد بأن قام - بناء على رغبة الدوق ( كارل أوجسطس Augusts ) وضد ارادته هو تماما - بترجمة مسرحية فولتير عن محمد واعدادها للمسرح .

وهناك أخيرا أكثر من اثنتى عشرة قصيدة من أشعاره فى « الديوان الشرقى الغربى » تهتم بمحمد وبالقرآن . وفى الملاحظات والمقالات حول هذا الديوان يعود جوته - بوصفه مؤرخا - للحديث عن محمد وتعاليمه .

\* \* \*

#### ٤ - جيبون ( Gibbon ) :

وفى السبعينات من القرن الثامن عشر ظهر أيضا الكتاب الشهير لجيبون (٣٥) عن « تاريخ انهيار وغروب الدولة الرومانية » . ويتخذ جيبون ازاء محمد نفس الموقف الذى اتخذه توربين والذى يتمثل فى أن مآثر محمد قد رفع من شأنها - فى رأيه - تشويهات المسيحيين غير الحكيمة أكثر بكثير مما حققت منها . ولا يريد جيبون أن يقرر أيضا ما اذا كان

---

(٣٤) نشر هذا الكتاب فى بينا بألمانيا عام ١٩٠٧ .

(٣٥) ادوارد جيبون ( ١٧٣٧ - ١٧٩٤ ) مؤرخ انجليزى شهير . وقد ظهر كتابه المشار اليه فى عامى ١٧٧٧/١٧٧٨ وترجم الى الألمانية عام ١٩٠٣ .

محمد متحمسا أو دجالا لأنه ليست هناك الا خطوة واحدة فقط من  
التحمس الى الدجل (٣٦) .

\* \* \*

٥ - هررد ( Herder ) :

وعلى العكس من ذلك فانه لم يكن هناك مجال للشك لدى هررد (٣٧)  
فى ان محمدا كان فى الحقيقة متحمسا ( Schwärmer ) . ويصف هررد  
محمدا بأنه : « مزيج خاص من كل ما يمكن أن تعطيه الأمة والقبيلة  
والزمان والمكان . فقد كان تاجرا ونبيا وخطيبا وشاعرا وبطلا ومشرعا ،  
وكل ذلك حسب الطريقة العربية » .

ويبدو أن سبب نبوته يتمثل فى البغض لشناعة عبادة الأصنام  
والتحمس لتعاليم توحيد الله وطريقة التعبد له بالطهارة والذكر والعمل  
الصالح . « وقد كانت التقاليد الفاسدة لليهودية والمسيحية ، وطريقة  
التفكير الشاعرية لأمتة ولغة قبيلته ومواهبه الشخصية - كانت كلها كأنها  
الأجنحة التى حلقت به فوق نفسه وخارج نفسه » .

ولكن هررد يعبر عن حكمه على القرآن على النحو التالى :

« هذا الخليط الفريد من فن الشعر وحسن البيان والجهل والذكاء  
والتكبر هو مرآة نفسه التى تبين مواهبه ونقائصه وميوله وأخطائه  
وخداع نفسه والمعونات الوقتية التى خدع بها نفسه وخدع الآخرين ،  
وذلك ( كله ) بدرجة أكثر وضوحا مما يتبين فى أى قرآن آخر لنبى  
من الأنبياء » (٣٨) .

\* \* \*

(٣٦) اذا كان جيبون لم يستطع أن يدرك الفرق بين الحماس الدينى  
الحقيقى والدجل فلعله كان فى وسعه أن يدرك الفرق بين الحق والباطل  
لو تجرد لطلب الحقيقة بعيدا عن الأهواء والأحكام السابقة . والفرق بين  
الحق والباطل ليس مجرد خطوة واحدة بل هو فرق ما بين السماء والأرض .  
(٣٧) يوهان جوتفريد فون هررد ( ١٧٤٤ - ١٨٠٣ ) كاتب المانى  
معروف وعالم فى اللاهوت . ومن مؤلفاته « أفكار لفلسفة تاريخ الانسانية »  
وقد تأثر به جوته فى شبابه .

(٣٨) الفكرة الأساسية المسيقة لدى هررد وأمثاله هى أن القرآن  
من تأليف محمد ، ولذلك فهو مرآة نفسه ونتاج عقله . ومن هنا فاذا ورد

## ٦ - أولزرنر ( Oelsner ) :

وعلى أكتاف هرردر يبرز أولزرنر فى بداية القرن التاسع عشر بكتابه الذى نال به أحد الجوائز فى عام ١٨٠٩ . وعنده يعد محمد فى الأصل متحمسا وجد الدليل على بعثته فى قوة اعتقاده فقط ، ومن السهل أن يخلط المرء بينه وبين مجرد انسان دجال . واذا لم تكن هناك أيضا أغراض طموحية قد عملت على تحريكه فى البداية فإنها قد أتت فى أعقاب الحماس . وبنفس القدر الذى برد فيه الحماس لقضية الله أو قضية الوطن اشتد لديه الغرض الأنانى عن طريق كل الوسائل المساعدة التى أكسبها له حماسه النارى السابق . وبطبيعة الحال لا يمكن تحديد التوقيت الذى انتهى فيه خداع الذات وبدأ فيه الدجل تحديدا دقيقا (٣٩) .

ويصف أولزرنر محمدا بالتفصيل بأنه الداعى للاله الواحد وبأنه أستاذ فى الديبلوماسية وبأنه رجل دولة وقائد جيش عبقرى . ولكن بمرور الزمن تحول دينه من دين يدعو للسلام ويمقت الحرب الى دين للسيف ، وان كان أولزرنر أيضا - كما كان فولتير من قبله - لا يرى اطلاقا أن النجاحات التى حققها الاسلام يعود الفضل فيها الى السيف وحده .

\* \* \*

---

فى القرآن أنه وحى الله اعتبروا ذلك نوعا من الخداع أو التضليل . واذا كان هذا هو موقفهم الأساسى الذى يسيطر عليهم قبل التعرف على القرآن فلن يصلوا الى حقيقة الاسلام أبدا الا اذا أزالوا من على أعينهم وقلوبهم هذه الغشاوة المتمثلة فى الأوهام والأحكام السابقة ، وتخلصوا من التعصب الذى يحجب عنهم نور الحقيقة .

(٣٩) هذه كلها مزاعم لا تعتمد على أى أساس من الواقع ولا من التاريخ ، وتدخل كلها فى باب التخمينات والظنون . وما قام به النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة من تنظيم المجتمع وتأسيس الدولة والدفاع عنها بكل الطرق المشروعة يعد جزءا لا يتجزأ من الاسلام الذى جاء نظاما للحياة بكل جوانبها . واذا كان هذا يخالف مفهوم الدين لدى الغربيين فعليهم أن يعيدوا النظر فى أفهامهم وتصوراتهم بدلا من خداع النفس بأنهم هم وحدهم أصحاب الحق والحقيقة .

## ٧ - رينو ( Reinaud ) :

وقد قدم رينو (٤٠) للبحث فى حياة محمد اسهاما يمتاز بقيمة خاصة فى العرض الموجز الذى قدمه عن حياة محمد فى كتابه « الآثار الفارسية والعربية والتركية فى ديوان السيد الدوق دو بلاكا » ( باريس ١٨٢٨ ) . وقد قام رينو فى عام ١٨٦٠ باكمال هذا العرض الموجز بصورة هامة على اساس ما صدر منذئذ من مراجع ، ونشره ك مقال ضمن « تراجم عامة جديدة » التى أصدرها ( ديدو Didot ) .

وفى هذه المقالة يقدم رينو فى البداية وصفا تفصيليا لحياة محمد بناء على اقدم وأوثق الشواهد والأدلة ، وبصفة خاصة بناء على القرآن الذى يعد أهم مصدر معاصر لمحمد ، ثم يرسم رينو صورة واضحة لشخصية النبى ، ويتبع ذلك بوصف للمصادر الرئيسية لحياة محمد وتعاليمه وأولها الحديث وأقدم التراجم العربية ، ثم يصف رينو القرآن بتفصيل خاص ، وبالإضافة الى ذلك يتناول بعض مسائل جزئية هامة من مسائل البحث فى حياة محمد ، ومن أمثلة ذلك :

هل كان محمد مصابا بالصرع ؟

كيف كان محمد يتلقى الوحي ؟

هل كان محمد يستطيع الكتابة ؟

وفى النهاية يتناول رينو علاقة محمد بالملك جبريل ويتناول أهم تفاسير القرآن وأهم النشرات والترجمات للقرآن . وقد أضفى البيان الوافر للمراجع على المقالة قيمة خاصة ، تلك المقالة التى قدمت صورة ممتازة لمستوى البحث فى حياة محمد فى عام ١٨٦٠ .

\*\*\*

---

(٤٠) جوزيف توسن رينو ( ١٧٩٥ - ١٨٦٧ ) مستشرق فرنسى ، كان أمينا لقسم المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس ، وأستاذا للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية ، وله جهود علمية فى مجالات الأدب العربى والتاريخ تأليفاً وتحقيقاً وترجمة .

## ٨ - هامر بورجشتال ( Hammer - Purgstall ) :

أما المستشرق الشهير يوسف فون هامر - بورجشتال (٤١) - الذى كان لمؤلفاته تأثير قوى على جوته - فقد تناول محمدا أيضا فى المقام الأول فى كتابه « صور لحياة الحكام المسلمين العظام » . وقد عرف برجشتال جزءا فقط من سيرة ابن هشام . وفى مقابل ذلك كانت أممه ثلاثة من الكتب الأخرى التى استخدمت هنا للمرة الأولى من جانب أحد الأوروبيين وهى :

« الخميس » للحسين الديار بكرى (٤٢) ، ووصف لحياة محمد باللغة الفارسية من تأليف عبد الله ، والترجمة التركية لقصص النبى من تأليف ابراهيم الحلبي (٤٣) والتى طبعت فى القاهرة عام ١٨٣٣ م .  
ويلخص هامر برجشتال حكمه على محمد فى نهاية كتابه على النحو التالى :

« على الرغم من ضلال شهبانته ، وعلى الرغم من الجرائم التى سولتها لنفسه حدة الطبع ، وبصفة خاصة الثأر لشرفه المهان عن طريق السخرية والاستهزاء (٤٤) ، وعلى الرغم من وجهة النظر المتناقضة التى

(٤١) بورجشتال ( ١٧٧٤ - ١٨٥٦ ) مستشرق نمساوى شهير . له دراسات عديدة فى تاريخ الشرق وآدابه وتاريخ الاسلام . أصدر أول مجلة استشرائية متخصصة فى أوروبا عام ١٨٠٩ هى مجلة « ينابيع الشرق » . وأهم مؤلفاته : تاريخ الدولة العثمانية فى عشرة مجلدات ، وتاريخ الآداب العربية فى سبعة مجلدات .

(٤٢) هو حسين بن محمد الديار بكرى ( توفى حوالى ١٥٧٤ م ) تولى القضاء فى مكة ، وكان شافعى المذهب . ومن مصنفاته « تاريخ الخبيس فى أحوال أنفوس نفيس » تناول فيه سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الى السلطان مراد العثمانى .

(٤٣) هو ابراهيم بن محمد بن ابراهيم الحلبي ( توفى عام ٩٥٦ هـ ) . فقيه حنفى من أهل حلب . تفقه بها وبمصر ثم استقر فى القسطنطينية وتوفى بها . وأشهر كتبه « ملقى الأبحر » ومختصر طبقات الحنابلة وتلخيص القاموس المحيط ( راجع الأعلام للزركلى ) .

(٤٤) المعروف أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد تزوج خديجة - التى كانت تكبره بسنوات - وعمره خمس وعشرون عاما ، وكان قد سبق

عبر عنها مؤرخون مشهورون ومستشرقون والتي تتمثل فى أن محمدا لم يكن الا مجرد كذاب ودجال من منطلق حبه للسيطرة - على الرغم من كل ذلك فاننا يجب أن نثبت على رأينا وهو أن محمدا لم ينطلق فقط من الفكرة العظيمة التى تتمثل فى هداية شعبه من ضلال الوثنية الى الطريق المستقيم بعبادة الله وحده ، بل كان يتمتع أيضا بمواهب شعرية ومشاعر دينية حية ، وكان مقتنعا ببعثته فى ساعات حماسه ، ورأى - كما رأى غيره من الأنبياء الذين سبقوه - أنه أداة السماء لهداية شعبه ، وأنه مؤسس واحد من الأديان الثلاثة التى انتشرت من مصر وسوريا وبلاد العرب الى كل بقاع الأرض وأنه خاتم الأنبياء واللبنة الأخيرة .

\* \* \*

٩ - كارلايل ( Carlyle ) :

وفى عام ١٨٤٠ ظهر الكتاب الشهير لكارلايل (٤٥) « حول الأبطال ونقد الأبطال » الذى خصص فيه المحاضرة الثانية للحديث عن محمد وعن الاسلام . وكارلايل لا يعتبر محمدا أحق الأنبياء ، ولكن يعتبره نبيا حقيقيا . أما رأى السائد عن حقيقة محمد والذى يتمثل فى أنه كان دجالا متعمدا وأن دينه عبارة عن خليط من الدجل الطبى والاسفاف فان كارلايل يعتبره رأيا باطلا .

لها أن تزوجت قبل ذلك مرتين ، وظلت له زوجة وحيدة الى أن ماتت بعد أن أمضى معها ثمانية وعشرين عاما . وبعد ذلك - أى وهو فى العقد السادس من عمره - تزوج سودة بنت زمعة أرملة أحد صحابته ثم تزوج باقى نسائه لأسباب انسانية نبيلة أو أهداف تشريعية . فأتين هنا ضلال شهوانيته المزعوم ؟ . أما الثأر لشرفه المهان وحدة الطبع . الخ . فهذا لم يعرف عنه اطلاقا . فقد كان « **رحمة للعالمين** » تمكن من أهل مكة الذين لاقى هو وأصحابه على أيديهم الأبرار وكان يستطيع أن يجمعهم ويأمر بقتلهم جزاء وفاقا على ما اقترعوه فى حقه وحق أصحابه من جرائم ، ولكنه عفا عنهم يوم فتح مكة عفوا مطلقا وقال قولته الشهيرة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . ( انظر كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٧ ) .

(٤٥) تيماس كارلايل - أو : كارلايل ( ١٧٩٥ - ١٨٨١ ) مؤرخ انجليزى وأحد فلاسفة الحضارة . وقد قام الأستاذ على أدهم بترجمة الجزء الخاص بالنبي صلى الله عليه وسلم فى كتاب « الأبطال » الى اللغة العربية .

« فالأكاذيب التى عمل على تراكمها الحماس المنبعث بحسن نية حول هذا الرجل ( يقصد محمدا ) لا تسب احدا غيرنا » . وأكثر من ذلك يصف كارلايل محمدا بأنه كان « نفسا عظيمة وهادئة ، لقد كان واحدا من هؤلاء الذين استطاعوا أن يأخذوا الأمور بجدية ، وانذين وجهتهم الطبيعة نفسها لى يكونوا مستقيمين » . فالأصالة والاستقامة هما الصفتان المميزتان لأخلاقه . ولكن هذه الاستقامة كانت تشتمل على شىء الهى ، « فكلمة مثل هذا الانسان هى صوت مباشر من قلب الطبيعة الحقيقية » .

ولم يكن محمد فى حياته الشخصية من عشاق اللذة على الاطلاق . فقد كان متاع بيته يعد من أكثر الأمور اعتدالا . ومع ذلك « فلم يحظ أى قيصر بتاجه بالطاعة مثلما حظى هذا الرجل بردائه الذى كان يرقعه بيده » .

أما القرآن فان كارلايل يطلق عليه أنه « بلبله ثقيلة ومحيرة ، فهو ساذج ومجذب ، يشتمل على تكرير واسهاب وتشابك لا حد له ، وهو جاف وغير ناضج ، وباختصار هو سخف لا يطاق » (٤٦) . ومع ذلك تكمن فيه قيمة أخرى تختلف تماما عن القيمة الأدبية . فهو بمثابة تخمر مبهم لنفس انسانية كبيرة وساذجة ، غير ناضجة وغير مثقفة ولم تكن تستطيع حتى أن تقرأ ، ولكنها نفس جادة وتفويض حماسا وتسعى سعيا جبارا لى تعبر عن ذاتها فى كلمات » .

\*\*\*

(٤٦) لقد تحدث كارلايل حديثا إيجابيا تماما عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عاد وخبب الآمال برأيه فى القرآن . وهذا الرأى يبنى — فى نظرنا — على أمرين هما : أولا : الموقف الأساسى الغربى الذى يصر على أن القرآن من تأليف محمد . وكارلايل — كما هو واضح — لا يشذ عن هذا الموقف . ثانيا : الترجمات السيئة للقرآن التى تعطى مثل هذا الانطباع الذى تحدث عنه كارلايل .

ولا نريد أن نتجنى على كارلايل ونقول انه قد تعمد الاساءة للقرآن . ولكن الأمر الذى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان متخلقا بأخلاق القرآن كما قالت عنه عائشة رضى الله عنها . فكيف يمكن لكتاب يشتمل على بلبله ثقيلة ومحيرة وعلى سخف لا يحتمل . . . الخ أن يخرج لنا هذه الشخصية العظيمة التى تحدث عنها كارلايل نفسه بكل اكبار وتعظيم . . أليس فى ذلك ما يدعو الغربيين الى إعادة النظر فى تلك الأحكام الجائرة على أقدس مقدسات الاسلام وهو القرآن ؟

## رابعاً : الكتابة التاريخية النقدية لحياة محمد فى القرنين التاسع عشر والعشرين

### ١ - جوستاف فايل ( Weil ) :

لقد افتتح عام ١٨٤٣ حقبة جديدة فى البحث فى حياة محمد . فقد ظهر فى هذا العام أول عرض تاريخى نقدى لحياة محمد من تأليف جوستاف فايل (٤٧) . وكانت كل الكتابات عن حياة محمد حتى ذلك الوقت لا تزال تستند باستمرار بدرجة تقل أو تكثر على كتاب جان جانييه الذى ظهر قبل ذلك بقرن من الزمان . ولكن جانييه - كما رأينا ( ص ١٧١ ) (٤٨) - لم يضع لنفسه مهمة وصف محمد كما كان ، بل كان يكتفى بترجمة المصادر العربية ويضعها ببساطة بجوار بعضها دون أى نقد . ولم يخطر ببال أحد ممن جاءوا بعده أن يقارنوا الترجمة التى قدمها بالنصوص الأصلية ولم يخضعوا مضمونها لنقد تاريخى . فقد أخذ كل منهم منها ما استطاع أن يستخدمه فى كتاباته . وإذا حدث أن استخدمت بعد ذلك مصادر أخرى لسيرة محمد غير تلك التى كانت متوفرة لجانييه فان ذلك كان يحدث بسطحية وغفلة لا تليقان بالتاريخ . ويتمثل الفضل الكبير لفايل فى أنه أول من قام بالمحاولة التالية :

**أولاً :** بحث ما قرره العرب حول مؤسس الاسلام بحثاً نقدياً وعزل الوقائع التاريخية الموثوق بها من الأساطير المتأخرة .

**ثانياً :** بحث طبيعة محمد بوصفه انساناً ونبياً ومشرعاً دون الوقوع تحت أسر مذهبى .

---

(٤٧) جوستاف فايل ( ١٨٠٨ - ١٨٨٩ ) مستشرق المانى ، كان أستاذاً للغات الشرقية . قام بترجمة كتاب « ألف ليلة وليلة » الى الألمانية ، ثم توفى على دراسة التاريخ الاسلامى . وأهم مؤلفاته - فضلاً عن كتابه عن حياة محمد ( ١٨٤٣ ) - مقدمة تاريخية نقدية فى القرآن ( ١٨٤٤ ) وتاريخ الخلفاء - فى ثلاثة مجلدات ( ١٨٤٦ - ١٨٥١ ) وتاريخ الخلفاء العباسيين فى مصر ( ١٨٦٠ - ١٨٦٢ ) . راجع : ( Fueck, p. 175 ) .

(٤٨) انظر ما سبق ذكره فى ذلك عند الحديث عن جانييه فذلك ما يعنيه بفانمولر هنا فى أحواله الى ص ١٧١ .

**ثالثا : واخيرا ، ترتيب القرآن -** الذى يمثل مزيجا مختلف الالوان من الأناشيد والصلوات والأساطير والعقائد والمواعظ والقوانين والتنظيمات - ترتيبا زمنيا .

ومن أجل هذا الغرض درس فايل القرآن بتفسير الجلالين ( ص ٢٢٧ ) ( ٤٩ ) ، وبالهومش العلمية لكل من ماراتشى ( ص ٢١٤ ) وسيل ( ص ٢١٦ ) ( ٥٠ ) وان كانت هذه الهومش ليست دائما تعد صائبة .

وبعد ذلك أعاد فايل قراءة تاريخ أبى الفداء من جديد ( ص ١٢٨ ) ( ٥١ ) ، وكان ( نويل فرجيه Noël des Vergers ) ( ٥٢ ) قد بذل فى هذا الكتاب جهدا مشكورا كناشر ومترجم وشارح . فضلا عن ذلك درس فايل بالاضافة الى جانبيه مختلف السير الأوروبية الصغيرة لحياة محمد ، وبوجه خاص تلك التى كتبها رينو ( ص ١٧٥ وما بعدها ) ( ٥٣ ) ، وقرأ أيضا مؤلفات ( جايجر Geiger ) ( ص ١٠١ وما بعدها ) ( ٥٤ ) ، ومؤلفات ( جيروك Gerock ) ( ص ١٠٩ وما بعدها ) ( ٥٥ ) عن علاقة المذهب المحمدى باليهودية والمسيحية .

( ٤٩ ) أشار بفانموللر فى ص ٢٢٧ الى أن كتاب تفسير الجلالين لجلال الدين آلحلى وجلال الدين السيوطى من أكثر الكتب استخداما لدى المستشرقين لسهولة استعماله .

( ٥٠ ) فى ص ٢١٤ تحدث بفانموللر عن ترجمة ماراتشى للقرآن وجهوده فى هذا الصدد وفى ص ٢١٦ تحدث عن ترجمة سيل للقرآن وما لها وما عليها وعن مقدمته التمهيدية الشهيرة .

( ٥١ ) فى ص ١٢٨ أشار بفانموللر الى المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ أبى الفداء ومنهم جانبيه وأدلر وفرجيه وهورى .

( ٥٢ ) فرجيه ( ١٨٠٥ - ١٨٦٧ ) مستشرق فرنسى ، له بعض الجهود العلمية عن ابن خلدون .

( ٥٣ ) ما يشير الية بفانموللر فى ص ١٧٥ . سبق الحديث عنه هنا فى هذا البحث عند الحديث عن رينو .

( ٥٤ ) فى ص ١٠١ يتحدث بفانموللر عن جايجر وما يزعمه من التأثيرات اليهودية فى الاسلام وفى القرآن على وجه الخصوص .

( ٥٥ ) فى ص ١٠٩ يتحدث بفانموللر عن الصلة بين القرآن والعهد الجديد ويشير الى أن جيروك قد بحث هذه المسألة وانتهى الى أن محمدا قد أخذ معلوماته عن المسيح من التراث الشعبى الذى كان سائدا فى بلاد العرب .

وأخيرا جمع فايل شيئا فشيئا ما تضمنته عن محمد مؤلفات كل من هوتنجر وريلاند وبوكوك ، ومذكرات أكاديمية باريس ومجلة توبنجن للاهوت وغير ذلك من مؤلفات أخرى مشابهة .

ولكن فايل لم يكتف بذلك ، فقد بحث أيضا عن مصادر شرقية جديدة تماما . وقام من أجل هذه الغاية برحلة الى ( جوتا Gotha ) وبعد فحص دقيق للمخطوطات المختلفة التي تملكها المكتبة هناك عن محمد ، بدا له أن أكثرها فائدة بالنسبة لهذه الغاية كتاب « انسان العيون » لمؤلفه على الحلبي ( ٥٦ ) فى أربعة مجلدات كبيرة ، وكتاب « الخميس » لحسين بن محمد الحسن الديار بكرى فى مجلدين كبيرين .

صحيح أن هذين المؤلفين قد عاشا فى القرن السادس عشر ، ولكن نظرا لأنهما لم يعترفا المضمون من أقدم المصادر فحسب ، بل التزاما أيضا بالكلمات من هذه المصادر ، وجمعا بأعظم قدر من الدقة كل ما وجداه عند السابقين من القرن الثانى للهجرة حتى عصرهما - نظرا لذلك فانهما يمكن - حسب رأى فايل - أن يوضعا بجانب أقدم المؤلفين من حيث الثقة بهما .

وفيما بعد حصل فايل من الأستاذ ( افالد Ewald ) ( ٥٧ ) على مخطوط بالغ الأهمية هو : سيرة الرسول لابن هشام ( ص ١٢٩ ) . وأخيرا حصل من الأستاذ رينو من باريس على الشرح التركى للمقاطع الثلاثة والمستين التى لخص فيها ابراهيم الحلبي سيرة محمد .

وعلى هذا النحو الذى أصبح فيه فايل مزودا بأفضل الوسائل المساعدة قام فى البداية بنقد صارم للمصادر ، ثم حاول أخيرا بوصفه مؤرخا القيام بعمل متكامل من تلك المصادر التى قام بفحصها فحفا نقديا . وقد اعتمد هنا فى عرضه على المصادر بقدر الامكان .

---

( ٥٦ ) هو نور الدين بن برهان الدين على بن ابراهيم القاهرى الشافعى ( ٩٧٥ - ١٠٤٤ هـ ) وأشهر مؤلفاته السيرة النبوية بعنوان « انسان العيون فى سيرة الأمين المأمون » وتدعى عادة السيرة الحلبية .

( ٥٧ ) هينريش افالد ( ١٨٠٣ - ١٨٧٥ ) مستشرق المانى ، كان عالما فى اللاهوت ومتخصصا فى العهد القديم وعلى دراية بعدد كبير من اللغات الشرقية وغير الشرقية .

وهكذا حصلنا على أول كتاب تاريخى نقدى لحياة محمد .  
ولكن المرء يجد بجانب ذلك ( فى كتاب فايل ) ليس فقط الحديث عن  
تعاليم العقيدة ، بل يجد أيضا عرضا لأهم قوانين العبادة وقوانين الأحوال  
المدنية والجنائية وقوانين الدولة فى الاسلام وذلك فى علاقتها بالحياة  
الخارجية لمحمد . أما حديث فايل عن القرآن فى القسم الأخير من كتابه  
فقد قام فى السنوات التالية لذلك باكماله فى كتابه « مقدمة تاريخية  
نقدية فى القرآن » ( ص ٢٢١ ) ( ٥٨ ) . كما أن بحثه عن « الأساطير  
التي أخذها المسلمون من الكتاب المقدس » الذى ظهر عام ١٨٤٥ -  
يشكل أيضا اضافة مكملة فى جوانب معينة لمؤلفه الرئيسى . وتشتمل  
الملحقات بصفة أساسية على اقتباسات مترجمة ترجمة أمينة من المصادر ،  
وبصفة خاصة اقتباسات من كتاب ابراهيم الحلبي ، بوصفها أسانيد  
للدعاوى التي كانت تعد جديدة أو تلك التي كانت حتى ذلك الحين  
محل نزاع .



## ٢ - كوسان دى برسيفال ( Perceval ) :

أما حديث كوسان دى برسيفال ( ٥٩ ) عن محمد فى المجلد الثالث  
من كتابه « المقالات » فانه لا يشكل عملا مكملا لعمل فايل النقدى .  
فكوسان كثيرا ما يروى ما تقوله المصادر أكثر من اهتمامه بالبحث فى  
استقلال . لقد كان حقا مزودا بمعارف لغوية أكثر عمقا ودراسات تاريخية  
أولية أفضل من أسلافه ، وكان تحت يده أيضا مراجع مصدرية أقدم وأوثق  
( مما كان لدى غيره ) . وهكذا فان فضله الرئيسى لا يتمثل فى تنمية  
البحث النقدى ، بل يتمثل فى أنه فى الغالب يجعل المصادر الأصلية  
هى التي تتحدث .




---

( ٥٨ ) يحيل بفانمولر هنا الى ص ٢٢١ حيث يتحدث هناك عن  
محتويات هذا الكتاب .

( ٥٩ ) كوسان دى برسيفال ( ١٧٥٩ - ١٨٢٥ ) مستشرق فرنسى  
وكان أستاذا للغة العربية فى معهد فرنسا الذى تخرج فيه .

### ٣ - أرفينج ( Irving ) :

أما حياة محمد التي كتبها واشنطن أرفينج (٦٠) - على أساس من مصادر إسبانية وكتاب أبى الفداء لجانييه وكتابات جوستاف فايل - فانها على ما فيها من صياغة براقية ليست لها أهمية علمية .

\*\*\*

### ٤ - رينان ( Renan ) :

وعلى أساس من أعمال فايل وكوسان دى برسيفال قدم رينان (٦١) رؤية مستفيضة عن محمد وعن نشأة الاسلام ، ولكنه لم يأت فى ذلك بجديد . ومصادر نشأة الاسلام - التي تبدو لنا اليوم بعد بحث شاق لا نهاية له أكثر ابهاماً وعموضاً من أى وقت آخر - تبدو لرينان واضحة لدرجة أنه يتحدث عن « دين نشأ فى وضح النهار » .

أما الشيء الهام ( الذى قدمه رينان ) فهو تلك النظرة السريعة على البحث فى حياة محمد وتقديم بعض الملامح المقارنة من تاريخ الأديان العام . ويصف رينان الاسلام بأنه « دين طبيعى عقلى يتصف بالجدية والليبرالية والبرود » .

\*\*\*

### ٥ - ارنست ماير ( E. Meier ) :

ويعتمد على فايل أيضاً ارنست ماير (٦٢) فى مقالته التى بين فى بعض نقاطها كيف يمكن أن نحصل أيضاً على أكثر المعارف أهمية عن الحياة العقلية لمحمد وعن أخلاقه من خلال فهم أكثر دقة للقرآن .

\*\*\*

(٦٠) واشنطن ايرفينج مستشرق أمريكى وقد صدر كتابه « حياة محمد » فى نيويورك عام ١٨٤٩ وترجم الى الألمانية عام ١٨٥١ .  
(٦١) ارنست رينان ( ١٨٢٣ - ١٨٩٢ ) فيلسوف ومستشرق فرنسى من مؤلفاته ( ابن رشد والرشدية ) الذى ترجمه عادل زعيتر الى العربية . وكتابه الذى يعتمد عليه بفانوللر هنا هو : دراسات فى تاريخ الأديان - باريس ١٨٥٧ .

(٦٢) نشر بحث ارنست ماير عن « محمد : حياته وتعاليمه » فى مجلة اللاهوت العلمى فى بينا بألمانيا عام ١٨٥٨ . العدد رقم ١ من ص ٤٧١ الى ٤٨٨ .

## ٦ - وليم موير ( W. Muir ) :

وترجع السيرة الكبرى الثانية لحياة محمد - بجانب فايل - الى العالم الانجليزي وليم موير (٦٣) . وقد انبثقت من مقالات نشرها المؤلف منذ عام ١٨٥٣ فى مجلة كلكتا ( Calcutta Review ) . ويشتمل المجلد الأول فى البداية على المقدمة التى تتكون من الفصول الأربعة التالية :

- ١ - المصادر المتعلقة بسيرة حياة محمد .
- ٢ - السكان الأصليون وتجارة العرب القدامى وفقا للكتاب المقدس والمؤلفين القدماء .
- ٣ - تاريخ بلاد العرب قبل الاسلام حسب المؤلفات التراثية المحمدية .
- ٤ - أجداد محمد وتاريخ مدينة مكة من منتصف القرن الخامس حتى مولد محمد فى عام ٥٧٠ ميلادية .

وبعد المقدمة فى المجلد الأول يأتى الفصل الأول من السيرة الحقيقية التى تستكمل فى المجلدات الثلاثة التالية فى سبع وثلاثين فصلا حتى تصل الى النهاية . وفى الفصول التى تتعلق بالأحداث الخارجية لا يقدم لنا المؤلف شيئا جديدا الا القليل . ويظهر المؤلف كباحث متعمق فى الفصل الثالث « عقيدة محمد فى الهاماته أو وحيه » . ومن الفصول الجيدة أيضا الفصل السابع « علاقة الاسلام بالمسيحية » ، والفصل السابع والثلاثون « شخص محمد وأخلاقه » .

وقد كان من الممكن اختصار الكتاب كثيرا بصفة خاصة فى الحديث عن التاريخ الخارجى المعروف المتعلق بمحمد ، كما أن القسم الأكبر من المجلد الأول الذى يتصل بالتاريخ الأقدم لبلاد العرب قد استفاه المؤلف من كتاب كوسان دى برسيفال . ولكن الفصل الأول من المقدمة يمتاز بقيمة كبيرة ، هذا الفصل الذى يهتم بمصادر سيرة محمد ويبحث فى درجات وثوقها المختلفة . وعلى الرغم من موقف المؤلف المصبوغ بصبغة

---

(٦٣) السير وليم موير ( ١٨١٩ - ١٩٠٥ ) مستشرق امكتلندى .  
صدر كتابه عن ( حياة محمد ) فى أربعة أجزاء فى لندن من ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ .

مذهبية حادة فان عرضه ( للموضوعات ) كان باستمرار عرضا واضحا وجديرا بالتقدير .

وفد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من عام ١٨٥٨ حتى ١٨٦١ ، وظهرت الطبعة الثانية - التي اختصرت فيها بعض النقاط - فى عام ١٨٧٦ ، وظهرت الطبعة الثالثة فى مجلد واحد فى عام ١٨٩٤ ، ثم ظهرت طبعة جديدة منقحة فى عام ١٩١٢ ، ولكن هذا التنقيح لم يمتد الا الى تصحيح كتابة الكلمات العربية بالحروف اللاتينية وتصحيح الاقتباسات وازافة بعض الاشارات فى الهوامش .

أما كتاب موير « محمد والاسلام » فهو اختصار للكتاب الكبير « حياة محمد » . ويدين المؤلف بالفضل كثيرا الى كل من فايل واشبرنجر . وقد أخذ الصور الى حد ما من الكتاب المصور الرائع « مدنية العرب » الذى ألفه ( ج . لوبون Le Bon ) .



#### ٧ - ألويس اشبرنجر ( A. Sprenger ) :

وأما الكتاب الثالث الكبير الذى تم تأليفه طبقا لوجهات نظر تاريخية نقدية فقد كان من تأليف ألويس اشبرنجر (٦٤) وكان اشبرنجر قد نشر فى عام ١٨٥١ مؤلفا عن حياة محمد كتبه بالانجليزية ، ولكن لم يظهر من هذا المؤلف الا القسم الأول فقط . ويشتمل هذا القسم الأول - بعد مدخل قصير - على الكتابين الأولين . وقد تناول فى أولهما فى فصول ثلاثة تاريخ مكة ، وأجداد محمد ، والأساطير الاسلامية حول هذين الموضوعين ، ومصادر سيرة محمد . وزوى فى الكتاب الثانى فى فصول ثلاثة حياة محمد من مولده حتى وصوله الى المدينة .

(٦٤) ألويس اشبرنجر ( ١٨١٢ - ١٨٩٣ ) مستشرق نمساوى الأصل ، تنسب بالجنسية البريطانية عام ١٨٣٨ ، كان أستاذا للغات الشرقية فى جامعة برن بسويسرا وعمل أيضا فى الهند . ويقول المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت عن كتاب اشبرنجر ( حياة محمد ) : « انه كتاب جاء مخيبا للآمال فى أكثر من ناحية وانه لم يراع شروط ومتطلبات التقرير العلمى » ( راجع : الدراسات العربية والاسلامية فى الجامعات الألمانية لبارت ص ٢٢ ) .

وبعد ذلك بعشر سنوات ظهر المجلد الأول من كتابه الكبير عن سيرة محمد ( بناء على مصادر لم تستخدم من قبل الا قليلا جدا ) . وفى المقدمة يتحدث اشبرنجر عن نشأة كتابه والغاية منه . وقد قضى المؤلف أجمل سنوات عمره فى الشرق ، وتعرف بخبرته على البلاد التى تمثل موضوع بحوثه . وعمل مدة اثنى عشر عاما مشرفا على المعاهد العليا الاسلامية فى الهند العليا .

وقد استغل هذا الوقت لى يجمع بلا كلل مخطوطات ومطبوعات شرقية ، وليتعمق فى لغة وروح الشرقيين . وبعد أن انتهت سنوات التجول تمثلت مهمته فى الاشتغال بالمادة ( العلمية ) التى جمعها فى الشرق ( بهدف كتابة ) تاريخ نشأة ذلك الدين العالمى الذى نملك وحدنا مصادر عن أصل نشأته (٦٥) .

وقد كانت هناك نظريات عديدة تم وضعها حول محمد ، فقد كان موير يعتقد أن الشيطان قد مارس لعبته مع محمد ، وكان كارلايل يرى فيه انسانا فذا . وفى ألمانيا سلب المرء من كلمة نبى كل ما تعنيه ثم زعم انه كان نبيا .

ويريد اشبرنجر أن يبرهن على أن محمدا لم يكن لا بطلا بالمعنى الذى يقصده كارلايل ولا أداة للشيطان . وقد أدت نتائج بحوثه الى اقتناعه بأن الاسلام « لم ينبع من النسب والحسب ، ولا من ارادة اللحم (٦٦) ولا من ارادة رجل » ، بل من متطلبات العصر . واذا كان كارلايل قد قصد ان يقول عن محمد كل ما هو خير مما يستطيع المرء اثباته ، فان اشبرنجر ينهج نهجا مضادا تماما ، ويريد أن يلفت النظر عند كل مناسبة الى الضعف الانسانى لدى محمد . وحيث انه ليست اديبا اخبار عنه غير تلك الاخبار التى لدينا من جانب محبيه فانه « يجب على كاتب السيرة أن

---

(٦٥) على أى أساس يبنى هذا الادعاء العريض بأن الأوروبيين رحدهم هم الذين لديهم مصادر عن أصل نشأة الاسلام ؟ هذا وهم لا يعتمد الا على منطق العجرفة وعقدة التفوق لدى الأوروبيين !

(٦٦) هكذا ورد التعبير فى الأصل ولعله يقصد بذلك أنه لم ينبع من سبب مادى بحت .

يقوم بالدور الخبيث لمثل الاتهام ( Advocatus Diaboli ) ، وأن يستخرج مساوئ أخلاقه من كلمات مدح محبيه « (٦٧) » .

وقد قام اشبرنجر يقينا بتنفيذ هذا الدور ببراعة ! ومن خلال مهنته كطبيب ينظر في أخلاق محمد بشغف من وجهة النظر الطبية وينتهي الى الاقتناع بأن محمدا كان انسانا هستيريا . وقد عارض سنوك هورجرونيه ذلك ( قائلا ) : ان الأهمية الخاصة لمحمد يجب أن تتمثل في هذا الذى يميزه عن غيره من الهستيريين ، وليس فى الأحوال المرضية التى يشترك معهم فيها ( ٦٨ ) .

وإذا كان هذا الرأى أيضا ( من جانب اشبرنجر ) عن محمد لا يعد رأيا متينا فان كتاب اشبرنجر مع ذلك قد أصبحت له أهمية كبيرة بالنسبة للبحث الحديث كله فى موضوع محمد . وقد خص اشبرنجر القرآن بصفة خاصة بأعظم قدر من الاهتمام بوصفه المصدر الرئيسى لحياة محمد . ويصرح فى فخر بأنه « قد مهد الطريق لفهم القرآن » . ويشتمل كتابه على ترجمته المستقلة لثلثى القرآن تقريبا .

وطبقا لمقصد اشبرنجر فان كتابه قد خصص لطبقتين مختلفتين تماما من القراء : للباحث الذى لا يفهم العربية ، ومع ذلك يرغب فى دراسة متعمقة لطبيعة الاسلام ، وللقارئ غير المتعمق الذى يكتفى بنتائج بحوث الآخرين .

ولكن فيلهاوزن كان على حق فى حكمه ( على عمل اشبرنجر على النحو التالى ) :

« يعد كتاب اشبرنجر ينبوعا ثريا فى المادة والأفكار بالنسبة للدارسين للعلوم العربية القادرين على التمييز ، ولكنه غير مناسب اطلاقا للاطلاع بالنسبة لدائرة أوسع من جمهور الناس على الرغم مما يبدو من أنه قد خصص لذلك » ( محمد فى المدينة ص ٢٦ ) . ولكن فيلهاوزن لا يريد أيضا أن ينكر الأهمية العالية لكتاب اشبرنجر :

(٦٧) الغرض اذن من بادئ الأمر هو البحث عن مساوئ ، وحيث أنه سيعيبه البحث عنها دون جدوى فانه يلجأ الى تخيل مساوئ من كلمات المدح . فهل هذا منطق ، وهل هذا منهج علمى مقبول ؟

(٦٨) راجع تعليقاتنا على مثل هذه المزاعم فى ص ٩٠ من العدد الأول من مجلة مركز بحوث السنة والسيرة .

« على العكس من الطريقة التي كانت سائدة الى حد ما زمنا طويلا في ألمانيا ، والتي كانت تنظر الى الأدب العربى على أنه بمثابة مجموعة كبيرة من الأمثلة لقواعد النحو فان اشبرنجر قد كان له تأثير منعش الى أقصى حد عن طريق شعوره الحى والسليم بالنسبة للأشياء ، وذلك باهتمامه المباشر والأصيل بمضمون التراث اهتماما بعيدا عن النظرة التخصصية الضيقة وعن اتباع مذهبية معينة . فهو رجل طبيعى صميم ، وفى ذلك تكمن قوته ، مع كل ألوان الضعف التي تلازمه ايضا من أجل ذلك » .  
( محمد فى المدينة ص ٢٤ ) .

وفى الختام نورد بيانا قصيرا بمضمون المجلدات الثلاثة :  
يسير المجلد الأول ( فى البحث ) حتى عام ٦١٦ م ، فيصف شباب محمد والسنوات الأولى لظهوره كنبى . أما المجلد الثانى فانه يتناول فى تسعة فصول الفترة الواقعة بين الهجرة الأولى الى الحبشة عام ٦١٦ م حتى الهروب (٦٩) الى المدينة . ويشتمل المجلد الثالث فى البداية على مقدمة ضافية تعرفنا - بعد ايراد بعض الملاحظات التمهيدية - بالمصادر التي اعتمد عليها المؤلف . فالقرآن نفسه ، وبعض الوثائق القليلة ، وكتاب سيرة محمد ، والسنة ، وتراث الأنساب ، كل ذلك كان يقدم مادة ثرية جدا للمؤلف ساعدته على تأليف كتابه .

والمضمون الحقيقى للمجلد يتكون من ثمانية فصول يتناول فيها ظهور محمد فى المدينة بوصفه مشرعا وفاتحا وحاكما حتى وفاته . ويصاحب كل فصل استطرادات مسهبة . والعرض مستفيض جدا للأسف ، ويشكل « مزيجا غير مستساغ من حكايات وتأملات نقدية » . ( فيلهاوزن ) .



(٦٩) هكذا يطول لكثير من المستشرقين تسمية الهجرة الى المدينة هروبا . ولو كان الأمر أمر هروب لما كان هناك هبرر لأن يظل محمد فى مكة حوالى ثلاثة عشر عاما منذ بدء الدعوة يتعرض فيها هو وأصحابه لأقسى ألوان التعذيب والاضطهاد والحصار والتجويع . ولو أراد أن يهرب لفعل ذلك قبل الهجرة بسنوات ، وبخاصة بعد موت خديجة وعمه أبى طالب الذى كان يحميه من غدر المشركين . فالأمر لم يكن اذن يتعلق بإرادة محمد صلى الله عليه وسلم فى تحديد الموعد الذى يترك فيه أحب بلاد الله الى نفسه مهاجرا الى المدينة أو غيرها من بلاد الله ، ولكنها إرادة الله ، ولم يكن له الا أن يمثل لأمر الله .

## ٨ - نولدكه ( Nöldeke ) :

لقد جاءت فترة الستينات من القرن التاسع عشر - وهي فترة تعد ذات أهمية كبيرة بالنسبة للبحث في حياة محمد - جاءت بعرض شعبي ممتاز لحياة محمد كتبه مؤلف « تاريخ القرآن » . ويعبر نولدكه (٧٠) نفسه في المقدمة عن الغاية من كتابه ، كما يعبر كذلك عن موقفه من أسلافه فيقول :

« على الرغم من البحوث التي أجريت بحماس بالغ في العشرين سنة الأخيرة عن محمد وعن أصل نشأة الاسلام - وأخص بالذكر هنا فقط تلك المؤلفات الرائعة لكل من فايل وكوسان دي برسيفال وموير واشبرنجر - فان مجال البحث لم يختتم اطلاقا ، ولهذا فاني مع ذلك كله أعتقد بأن عرضا شعبيا لتاريخ محمد مرتكزا على المصادر يعد عملا مناسباً للعصر وأمرا مشكورا . وقد تجنبت عن عمد كل المناقشات العلمية وكذلك كل الجدالات ، ولم أذكر من الاقتباسات الا حوالى ستة اقتباسات فقط . ومع ذلك فانه يصح لى أن أؤكد أن عملي يستند تماما على بحثي الخاص للمصادر . والأسس العلمية لهذا العمل هي في جوهرها تلك الأسس التي تركز عليها الفصول الأولى من كتابي « تاريخ القرآن » .

وقد وضعت أمام عيني أولا أمثال هؤلاء القراء الذين لا يعرفون اللغة العربية ، ولكني أمل على الأقل أن تكون بعض الآراء ووجهات النظر المطروحة هنا ماثار اهتمام المستشرقين أيضا . وقد أوليت الأحوال السياسية والشعبية قدرا خاصا من الاهتمام ، وأفادتني في ذلك بصورة أساسية دراستي الطويلة والمتواصلة للشعر العربي القديم . وهناك قصور يجب أن اعترف به ويتمثل في عدم الدقة في الترتيب الزمني للسنين العشر الأخيرة من حياة محمد . ولم أستطع أن أستخدم من مؤلف اشبرنجر العلمى الا القسم الأول فقط عند كتابة هذا الكتاب . ويمتاز مؤلف اشبرنجر بعمقه وحدة ذكائه وعرضه الطريف ، ولكني كثيرا ما اضطررت أيضا الى أن أخالف آراءه » .

(٧٠) تيودور نولدكه ( ١٨٣٦ - ١٩٣٠ ) مستشرق ألماني معروف، كان أستاذا للغات الشرقية في عدد من الجامعات الألمانية ، له إنتاج غزير في مجالات التحقيق والترجمة والأدب العربي واللغات السامية والدراسات الاسلامية . وقد صدر كتابه « حياة محمد » في هانوفر بألمانيا عام ١٨٦٣ .

- ويقع كتاب نولدكه فى سبعة فصول ( على النحو التالى ) :
- ١ - المقدمة . حياة محمد حتى ظهوره النبوى .
  - ٢ - من الظهور النبوى لمحمد حتى هروبه الى المدينة .
  - ٣ - من الهروب حتى موقعة أحد .
  - ٤ - من موقعة أحد حتى حصار المدينة .
  - ٥ - من حصار المدينة حتى الاستيلاء على مكة .
  - ٦ - من الاستيلاء على مكة حتى موت محمد .
  - ٧ - أخلاق محمد .

وفى تقديره وحكمه على محمد يجتهد نولدكه فى أن يتم ذلك فى موضوعية هادئة على العكس من طريقة اشبرنجر الذاتية والحادثة . ولكى يكون المرء منصفاً لمحمد فانه يتحتم عليه أن ينظر اليه فى حياته ليس فقط بوصفه نبياً وواعظاً وأميراً ، بل ينظر اليه أيضاً فى تعامله مع أتباعه وأصدقائه وفى حياته اليومية . فهناك ملامح ثابتة لا تحصى تظهره هنا فى ضوء جميل . أما ما يتعلق بأخطائه فانه يجب على المرء أن يفكر فى أن هذه الأخطاء كانت فى قدر كبير منها أخطاء عصره وشعبه ، وأنه كان يبدي بجانب ذلك شمائل على أقصى درجة من النبيل ، وأنه هو نفسه كان مقتنعاً بمهمته لانقاذ اخوانه فى الانسانية من العذاب الأبدى عن طريق هدايتهم الى العقيدة الصحيحة ، ولجعلهم مشاركين فى السعادة السماوية .

\* \* \*

#### ٩ - كرييل ( Krehl ) :

بعد التراجم الكبيرة والعميقة لحياة محمد من جانب كل من فايل وكوسان دى برسيغال وموير واشبرنجر ونولدكه طرأت حالة من الركود فى البحث ( فى هذا المجال ) . ثم جاءت الثمانينات من القرن التاسع عشر مرة أخرى بكتابين كبيرين عن حياة محمد ظهرا متتابعين بفارق زمنى قصير وقام بتأليفهما لودولف كرييل (٧١) . وأوجست موللر .

(٧١) لودولف كرييل ( ١٨٢٥ - ١٩٠١ ) مستشرق ألماني . ساعد فى نشر الجزأين الأولين من كتاب نفع الطيب للمقرئ . ونشر ثلاثة أجزاء من الجامع الصحيح للبخارى . أما كتابه عن « حياة محمد » فقد صدر فى ليبترج بألمانيا عام ١٨٨٤ .

ويحاول كريل أن يبحث بصفة رئيسية التطور الديني لمحمد عن طريق الأحداث السياسية . ويسعى جاهدا في أن يكون محايدا بقدر الامكان في هذا البحث . ويعترف شاكرا بأن دراسة الكتب الكبرى لعلم الحديث ، مثل دراسة صحيحى البخارى ومسلم - اللذين يشتملان على الكثير الذى لا يحصى من الملامح المميزة جدا لمحمد وأقواله الثابتة بطرق جيدة - هذه الدراسة قد ساعدته في بحثه بصورة أساسية .

ومع أنه يعلم يقينا أن هذه المآثورات غالبا ما اصطبغت بأغراض لصالح محمد الا أنها رغم كل ذلك تظل في رأيه مصدرا رئيسيا لحياة محمد . وبناء عليها يظهر مؤسس الاسلام فى ضوء آخر ، وهو ضوء أفضل الى حد بعيد . ومع كل أخطائه يجب أن يعترف المرء بأن محمدا هو مؤسس المدنية العربية ، وأنه قد وضع شعبه تماما وبلا جدال على درجة عليا من الدين . « وان متحمسا دجالا ومرائيا وانسانا يقوده طموحه الأنانى فقط لم يكن له أن ينجح فى ذلك بكل تأكيد . فالقوة التى بناها كانت سرعان ما تنهار بالتأكيد مرة أخرى بعد موته اذا لم تكن قد بنيت على فكرة عليا وعلى تعاليم لا تزال تشغل اليوم فكريا وروحيا ملايين الناس وترضيهم بطريقتها ، وجاء على اثرها عبر القرون تراث واسع المدى جدا والى حد ما غنى بالأفكار ويشهد بثقافة عقلية عالية » .

أما القسم الثانى ( من كتاب كريل وهو : التعاليم ) فلم ينشر ، ولكن المخطوط موجود ضمن ما خلفه كريل . وهناك فقط بعض النقاط الجزئية للتعاليم ( الاسلامية ) تناولها كريل بالبحث وقام بنشرها ( ص ٢٦١ وما بعدها ) ( ٧٢ ) .

\*\*\*

١٠ - أوجست موللر ( A. Müller ) :

قام أوجست موللر ( ٧٢ ) فى اطار عرضه الشامل للاسلام بتقديم

( ٧٢ ) يشير بفانموللر فى ص ٢٦١ الى هذه البحوث التى نشرها كريل ، وأهمها بحث عن « عقيدة التضاء والقدر فى القرآن وصلتها بعقائد الاسلام الأخرى » وبحث عن عقيدة الألوهية وبحث عن خصائص العقيدة فى الاسلام .

( ٧٣ ) أوجست موللر ( ١٨٤٨ - ١٨٩٢ ) مستشرق ألماني . كانت رسالته للدكتوراة عن امرىء القيس ، وكان يطلق على نفسه أيضا

=

عرض نحية محمد أيضا يبنى على معرفة عميقة بالمصادر الأصلية ، ويتضمن حكما موزونا تماما على محمد . وبالمعنى التاريخى الخالص - كما يقول - يكون من الصعب على المرء أن ينكر على محمد اسم النبى . حقا لا يستطيع المرء أن ينكر أنه كان واقعا تحت حالات عصبية مختلفة نتيجة لمزاجه الذى كان سريع الانفعال بطريقة غير عادية ، وقد ارتفعت هذه الحالات فى بعض الأحيان الى درجة الهلوسة . ولكن هذه الحالات لم تكن أبدا ذات طبيعة صرعية ، بل كانت تتلاءم أيضا مع الانفعالات العصبية المعروفة ( التى تعترى ) الأشخاص من ذوى الحس المرهف دينيا . ولكن قدرته الكاملة على التمييز بصفة خاصة لم تكن تعانى تحت ( وطأة ) هذه الحالات . ولا يستطيع المرء أيضا أن يشكك فى إخلاصه الكامل فى الفترة المكية .

وإذا كان المرء لا يستطيع أن ينكر على محمد صفة نبى حقيقى فان مولر له مع ذلك بعض التحفظات . فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك الا جانبا واحدا فقط من الطبيعة الالهية ، وأنه ينقصه تماما مفهوم القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكل عميق بطريقة ما لفكرة نظام أخلاقى للحياة . ثم يصدمنا لدى محمد فى المدينة على وجه الخصوص أنه قد حول الدين الى السياسة فى تزايد مستمر : فقد استعان بالكذب لكى يفرض الحقيقة ، وربما كان ذلك فى البداية دون وعى ، ثم بنصف وعى ، وفى النهاية بوعى كامل ( ٧٤ ) !

اسم امرئ القيس بن الطحان . كان أستاذا لتعربية فى جامعة فيينا - له دراسات فى الأدب العربى والفلسفة واللغة وله جهود فى نشر وتحقيق وترجمة بعض الكتب العربية . وقد صدر كتابه عن « الإسلام فى الشرق والغرب » فى برلين عام ١٨٨٥ . ( راجع : المستشرقون للعقيدى ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها ) .

( ٧٤ ) يحاول أوجست مولر هنا تطبيق مفاهيم المسيحيين وتصوراتهم وهذا أمر ليس له ما يبرره على الإطلاق . فالدين من حيث هو دين ليس هو حول الطبيعة الالهية والقداسة وعزل الدين عن السياسة على الإسلام . - يقينا - ذلك المفهوم الأوروبى المسيحى . وإذا كانت الأنهام المسيحية قد حولت المسيحية الى هذه الصورة التى نعرفها والتى استخلص منها مولر مفاهيمه فان الإسلام قد جاء بتصحيح هذه التصورات واعادة الأمور الى نصابها الصحيح .

وقد استخدم مولر فى كتابته لقسم عظيم من تطور تعاليم محمد المدونات التى كانت تحت تصرفه من مخلفات صديقه ( أوتو لوت Otto Loth ) الذى كان أستاذا فى ليبتزج وتوفى للأسف مبكرا .

\* \* \*

#### ١١ - هوبرت جريمه ( H. Grimme ) :

اما كتاب حياة محمد الذى كتبه هوبرت جريمه (٧٥) واعقبه بعد ذلك بثلاث سنوات بالقسم الثانى الذى يشتمل على مقدمة فى القرآن ونسق علم الالهيات القرآنى ( انظر ص ٢٠٠ ) - فانه يعد جهدا مستقلا جدا فى مقابل المأثورات العربية ، وكذلك فى مقابل المؤلفات الأوروبية فى السيرة . وقد استند بصفة عامة على مادة المصادر المنشورة ، ولكنه اتبع - لدى استخدامه لهذه المادة - الى حد ما طريقة اخرى غير تلك التى اتبعها غالبية أسلافه ، وبذلك توصل فى الغالب الى نتائج مختلفة تماما عما توصلوا اليه .

ويرى جريمه على وجه الخصوص ان من الضرورى اتخاذ موقف اكثر حذرا من الأحاديث . صحيح ان مجموعات الأحاديث التى ترجع الى زمن أقدم من غيرها بوجه خاص تشتمل على كثير مما هو حقيقى ولا غنى عنه لتاريخ محمد ، ومن المؤكد كذلك ان التزييف المتعمد لم يعمل عمله بمثل هذه الجراة فى اى مجال من مجالات الأدب مثلما فعله هنا فى هذا المجال . ولكن المرء لا يزال بعيدا عن التوصل الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف (٧٦) .

(٧٥) هوبرت جريمه ( ١٨٦٤ - ١٩٤٢ ) مستشرق المانى . كان أستاذا للغات الشرقية فى ( مونستر Münster ) بألمانيا . ومن مؤلفاته : « محمد » فى جزئين . وله دراسات حول اسم محمد ، وأصول ديانة محمد ، والأهيمية التاريخية العالمية لبلاد العرب فى عصر محمد ، والاسلام واليهودية وغيرها .

(٧٦) اذا كان جريمه وأمثاله لم يستطيعوا ان يتوصلوا الى طريقة يقينية للتمييز بين الصحيح والزائف من الأحاديث فان علماء المسلمين قد توصلوا الى ذلك منذ قرون ، وفى مقدمتهم أصحاب الكتب الستة الصحيحة التى أجمع المسلمون منذ ذلك الزمن البعيد على حجيتها والاعتداد بها .

وفضلا عن ذلك فان مجموعات الأحاديث غالبا ما تقدم كثيرا جدا من الأمور التي لا أهمية لها . وأخيرا فانها لا تقدم الا روح الحقبة المدنية ولكنها لا تقدم اطلاقا روح الحقبة المكية (٧٧) . ولكن من حسن الحظ انه لا يزال يتدفق هناك مصدر قوى للحقيقة التاريخية فى القرآن . وقد حاول المؤلف ان يستخدم القرآن بشكل مثمر تماما . ولكن هناك أمورا كثيرة تحمل هنا أيضا على الحذر . فمن الأمور التي لا تزال مثار جدل بوجه خاص قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية . ومن أجل ذلك يقدم المؤلف فى القسم الثانى فصلا خاصا عن « شكل السور القرآنية وتتابعها الزمنى » ويصل فيه الى بعض النتائج المخالفة (٧٨) .

ويذهب جريمه الى القول بأن محمدا كان فى المقام الأول مثيرا للفن أو محرّضا ( Agitator ) ذكيا وسياسيا كبيرا . وفى المدينة تطور محمد - حسب رأى جريمه - فى تزايد مستمر الى دجال عن وعى بذلك (٧٩) . ولكن الأمر الجديد تماما هو دعوى جريمه بأن محمدا عند ظهوره الأول ( بدعوته ) لم يكن يدعو الى دين اطلاقا ، بل كان يدعو الى شكل من أشكال الاشتراكية . فالاسلام « لم يظهر اطلاقا بوصفه نسقا

(٧٧) هذا كلام غير صحيح . فهناك أحاديث كثيرة من الفترة المكية . وقد عالجت مسائل العقيدة والأخلاق والحض على الصدقة وتناولت فريضة الصلاة وقصة الاسراء والمعراج وتحريم الخمر والزنا والربا وغير ذلك من موضوعات .

(٧٨) يثير المستشرقون منذ زمن طويل قضية الترتيب الزمني للسور القرآنية ، ولهم فى ذلك وجهات نظر متعددة ، والأمر الذى عليه المسلمون هو أن هذه القضية توقيفية لا تخضع للاجتهد البشرى . والنبي صلى الله عليه وسلم لم يترك الأمر فى ذلك للأهواء والأغراض ، بل حسمه بتوجيه الهى تم بناء عليه ترتيب الآيات والسور على النحو المعروف فى المصحف .

(٧٩) لسنا هنا فى مقام الدفاع عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو ليس فى حاجة الى دفاع . وهذا السبب لا يذيب الا أصحابه كما سبق أن قال توماس كارليل . وقد كان عليه الصلاة والسلام كما وصفه القرآن « شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » ( الأحزاب : ٥٥ ، ٥٦ ) ، وهو القائل : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » . ومن ناحية أخرى فقد سبق أن أشرنا مرارا الى قضية السياسة والدين وأنه لا انفصالية بينهما كما تذهب الى ذلك العلماتية الغربية التى يراد تقويم الاسلام من خلالها .

دينيا فى الحياة ، وانما بوصفه محاولة لشكل من أشكال الاشتراكية ليواجه ما كان سائدا الى حد بعيد من احوال أرضية سيئة معينة « (٨٠) .

وقدكان التناقض المخيف بين الأغنياء والفقراء - والذي كان سائدا فى مكة - هو الذى دفع محمدا الى المطالبة بضرورة أن يدفع كل فرد ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . ولكى يجد محمد آذانا صاغية لهذه الدعوة استخدم عقيدة يوم الحساب كوسيلة اجبار روحية .

\*\*\*

١٢ - سنوك هورجرونيه ( Hurgronje ) :

وفد عارض هذا الراى فى محمد سنوك هورجرونيه فى مقالة مسهبة فى « مجلة تاريخ الأديان » . وقد تضمنت هذه المقالة تفنيدا رائعا لراى جريمه . فكل كتاب سيرة محمد من الأوروبيين تصوروا - كما يقول هورجرونيه فى اعتراضه - ان محمدا قد شعر وهو فى سن الأربعين بأنه مدفوع لدعوة قومه الى دين . واحد هؤلاء الكتاب قد أراد أن يعطى الانطباع بأن هذا الدين كان بالنسبة لمحمد مجرد وسيلة للوصول الى السلطان والنفوذ فحسب . وقد ذهب « موير » الى القول بأن محمدا كان أداة من ادوات الشيطان ، ولكنه مع ذلك اعترف بأن هذا الشيطان قد ظهر لمحمد فى صورة رسول الهى . وبالنسبة لاشبرنجر كانت دعوى الهستيرية هى التى خدمته لكى يوضح أن محمدا كان ظاهرة دينية . وأخيرا فان المؤرخين من أمثال كارلايل الذين رأوا فى محمد عبقرية فذة - كانوا مع كل اختلافاتهم على اتفاق فى اعتباره عبقرية دينية .

والسؤال الكبير الذى يواجه كتاب سيرة محمد من البداية هو : ما اصل الاصطفاء الدينى لدى محمد ومن أين أخذ أفكاره الدينية ؟

ان افكاره الرئيسية هى - مع بعض التغييرات فى الشكل - تلك

(٨٠) لن نناقش هذه الدعوى المتهافئة . فالواقع والشواهد التاريخية الصحيحة تكذبها تماما ، فضلا عن أنها دعوى لا يوافقه عليها معظم المستشرقين ، ولعل جريمه وحده قد انفرد بها . وقد قام سنوك هورجرونيه بنتقضها وتفنيدها كما يتضح ذلك فى الصفحات التالية وأن كنا لا نوافق على الأسلوب الذى اتبعه هورجرونيه فى تفصيل رده المشتتل على الكثير من المزاعم الباطلة .

الأفكار التي تشترك فيها كل من اليهودية والمسيحية . وفى التفاصيل يبدى وحيه تارة الصبغة اليهودية ، وتارة أخرى الطابع المسيحى ، وتارة ثالثة يبدى أمورا متنوعة لخيال حر نسبيا مبنى على أساس يهودى مسيحى .

ولكن محمدا لم تكن لديه الا معلومات ناقصة وقاصرة عن اليهودية والمسيحية ، فلم يكن يعرف مثلا الكتاب المقدس أو علم العقيدة الأرثوذكسية ، بل كان يعرف فقط الأدب والتراث المشكوك فى صحته (Die apokryphe Literatur ) لهذين الدينين ( ٨١ ) . وقد كان محمد فضلا عن ذلك رجلا أميا : وهكذا ظلت الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية غريبة عنه . وعن طريق الحديث فقط مع أتباع هذين الدينين نعرف محمد عليهما كما كانا قائمين فى بلاد العرب حينذاك . ويضاف الى ذلك أن من الأمور التي تركت لديه انطبعا خاصا كان فن قراءة النصوص المقدسة أو فن تلاوتها وترتيلها فى صلوات اليهود والمسيحيين ، خاصة وأنه قد سمع الناس يقولون - واعتقد ( ما يقولون ) بلا حدود - أن الكتب والألواح التي يقرؤها اليهود والمسيحيون فى صلواتهم والتي تتضمن شرائعهم ومؤسساتهم ليست ذات مصدر انساني ، بل مصدرها الهى .

ولكن كيف تكون لدى محمد مفهوم الوحي ؟

فى البداية لم يكن محمد يلحظ اطلاقا الموقف العدائى الذي تتخذه

---

( ٨١ ) يحاول سنوك هورجورونيه هنا وفيما يلى من تفاصيل بيان أن الاسلام دين مأخوذ أساسا من اليهودية والمسيحية . وقد كانت المعلومات التي تلقاها محمد عن هذين الدينين معلومات ناقصة وقاصرة نظرا لاعتمادها على مصادر شكوك فيها . وهذا الاتجاه يكاد أن يكون اتجاها عاما لدى المستشرقين الذين يريدون أن يظهروا الاسلام بمظهر الدين البشرى المنفق من تلك المعلومات التي عرفها محمد عن طريق لثناءاته مع أتباع هذين الدينين . ولكن السؤال هو : لماذا لا يكون الاسلام دينا أصيلا مأخوذا مباشرة من نفس النبع الذي أخذت عنه الديانات السماوية قبل أن تتدخل أيدي البشر لتحريفها ؟ لماذا لا يكون الاسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحي الإلهى الذى أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية ؟ هل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحي مبدأ مسلم به أم لا ؟ انه اذا كان هذا المبدأ مسلما به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والمسيحية وتمنعه عن الاسلام ، واذا لم يكن - فى عرفهم - مبدأ مسلما به فلا مجال للديانات جميعا . ( راجع فى مناقشة هذا الموضوع كتابنا : الاسلام فى الفكر الغربى ص ٦٧ - ٧٣ ) .

الطوائف والكنائس المختلفة من بعضها بعضا . فالفرق بين اليهود والمسيحيين ، ووجود الطوائف والكنائس العديدة التى كانت تعادى بعضها بعضا خارج هذين الدينين ، كل ذلك قد بدا فى التصور الساذج لمحمد أنه يرجع الى اختلاف الأجناس أو القوميات . فقد صور البشرية - من حيث أنها تملك نعمة الوحي - مقسمة فى « جماعات » يمكن أن تتميز كتبها والواحها فى الشكل والمضمون ، ولكنها جميعا قد جاءت وحيا من لدن اله واحد وللغاية ذاتها .

وقد تأسست كل جماعة - فى رأيه - عن طريق انسان اصطفاه الله من بين شعبه وتحمل مهمة دعوة قومه الى كلمة الله بوصفه نبيا ومبعوثا أو نذيرا . وهناك عدد كبير من الأنبياء ، وليس بينهم فرق جوهرى . ولم يكن اصطفاء محمد للعرب - فى نظر محمد - أمرا مختلفا عن اصطفاء الأنبياء السابقين ، فقد كان كل منهم مختارا لشعبه الذى ينتمى اليه ( ٨٢ ) .

وهكذا كان فى وسع محمد أن يفترض بلا عناء أن أتباع الدينين القائمين الموحى بهما يمكنهم أن يعترفوا به بوصفه نذيرا مرسلا من الله للعرب دون أن يلحق ذلك أى ضرر بمعتقداتهم ( اليهودية والمسيحية ) . ولكن عندما اتصل محمد باليهود فى المدينة اتصلا مباشرا كان لا بد له حينئذ أن يعرف أن اليهود الحقيقيين والمسيحيين الحقيقيين لن يعترفوا اطلاقا باصالة بعثته الدينية .

ولكن نظرا لأنه من ناحيته كان مقتنعا بشرعية بعثته وكان يعتقد

---

( ٨٢ ) لم يكن ذلك كله اجتهادا من محمد صلى الله عليه وسلم ، بل كان وحيا تلقاه من ربه عز وجل . وفى هذا الوحي تأكيد على وحدة الأصل البشرى وإشارة الى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الناس شعوبا وقبائل لكي يتعارفوا وجعل أكرمهم عنده أتقاهم ، كما أشار الوحي الى أنه ليست هناك أمة الا خلا فيها نذير ، وأن الله قد أرسل الى كل أمة رسولا بلسان قومه . وهناك آيات قرآنية عديدة توضح هذه التوضيحية بجلاء . ثم كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عامة للناس جميعا وليس للعرب فقط - كما يزعم هورجرونييه - . وفى أول إعلان جهري بالدعوة أعلن محمد صلى الله عليه وسلم أنه أرسل الى العرب خاصة وإلى الناس كافة . وجاء ذلك فى الوحي المكى أيضا فى قوله تعالى : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ( سبأ : ٢٨ ) . وفى قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ( الأنبياء : ١٠٧ ) .

انها من جنس بعثة موسى وعيسى واسلافهما ، فقد أدى به ذلك بطبيعة الحال الى نتيجة مؤداها ان اليهود والمسيحيين قد فسروا الوحي الذي لديهم تفسيراً سيئاً . وعليه اذن ان يقوم بواجب تصحيحهم ! وتلك مهمة صعبة لمن لم يستطع ان يقرأ كتبهم المقدسة ، وكانت لديه أيضاً فضلا عن ذلك مفاهيم مشوشة عن طبيعة هذه الكتب وعن مضمونها (٨٣) .

وفى الفترة الثانية من نشاطه شرع محمد أيضا شروعا حقيقيا فى التعرف بعض الشيء عن قرب على التاريخ التقليدى الموروث للوحي السابق ، وحصل - مع بعض التغييرات الضرورية - على ما أمكن أن يخدمه فى التحرر من اليهودية والمسيحية اللتين استشهد بهما فى السابق اكثر من مرة على حقيقة بعثته ، ولم يكن فى ذلك الاستشهاد شئ من الحكمة (٨٤) .

ولن نقف عند المراحل الجزئية لعملية التحرر هذه ، وسنقتصر على اثبات أن محمدا لم يتوصل الى حل المشكلة دفعة واحدة ، بل تم ذلك بالتدرج شيئا فشيئا . وفى حين كان ابراهيم يعد فى الوحي السابق [ الذى نزل على محمد ] واحدا من اسلاف محمد : تعديدين فحسب ، يصبح الآن [ بالنسبة لمحمد ] رائده ومثله الأعلى على الاطلاق . وقد استمد ابراهيم هذه المنزلة العالية لدى محمد من أمرين توصل محمد الى معرفتهما أولا فى المدينة . الأمر الأول يتمثل فى أن ابراهيم - الذى يقده اليهود

---

(٨٣) لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فى حاجة الى قراءة كتب اليهود والنصارى ولم تكن لديه معلومات مشوشة عن تلك الكتب ، لأن الله الذى أنزل التوراة والانجيل هو نفسه الذى أخبر محمدا عن طريق الوحي بما طرأ على هذين الدينين من تحريف وتبديل . وبين له طبيعة هذا التحريف .

(٨٤) ما يقوله هورجرونيه فى كل تفصيلاته حول موضوع علاقة محمد صلى الله عليه وسلم باليهودية والمسيحية مبنى على افتراض أن الاسلام دين بشرى تفتق عنه ذهن محمد صلى الله عليه وسلم . وهن هنا نجد هذا الحرص الشديد على تفسير كل شئ من هذا المنطلق . وبناء على هذا الفرض الذى يعده المستشرقون حجة مسلمة . فالأمر اذن يدور حول رفض مسبق للاسلام بوصفه ديناً سماوياً . وهذا الرفض ليس له من علاج الا دراسة الاسلام دراسة نزيهة محايدة دون أن تكون هناك أوامم وتصورات أو أحكام سابقة .

والمسيحيون بنفس الطريقة بوصفه رجل الله - لم يكن يهودياً ولا مسيحياً(٨٥) . وكون محمد قد جعل اصطفاءه مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بتلك الأبوة مكنه من تفادى اتهامات اليهود الذين رموه بأنه لم يراع شريعتهم مراعاة تامة ، واتهامات المسيحيين أيضاً الذين عارضوه بعقيدة الخلاص عن طريق المسيح وحده .

أما الأمر الثانى فقد كان يتمثل فى أن محمداً قد عرف أن الكتاب المقدس قد جعل من ابراهيم الأب الأول للعرب . وهكذا كان محمد يميل بطبيعة الحال الى الاستناد الى أبى الجنس الذى ينتمى هو اليه . وقد وصف محمد نفسه من الآن فصاعداً بأنه ذلك النبى الذى جاء لاكمال العمل الذى بدأه الأبوان ابراهيم واسماعيل . فالاسلام الذى دعا اليه محمد كان هو نفسه تماماً ذلك الذى دعا اليه ابراهيم . وقد كان ابراهيم - الأب الأول للعرب - مثل محمد تماماً مسلماً وحنيفاً . ولكن ابراهيم لم يكن بالنسبة لمحمد المحرر من اليهودية والمسيحية فحسب ، فقد خدم النبى الأب محمداً أيضاً فى ادخال طقوس العبادة المكية فى الاسلام بعد ان خلصها من بعض المراسم التى تكشف بوضوح عن أصل وثنى .

وكان ابراهيم قد دفع باسماعيل وأمه الى بلاد العرب . وفى وسع المرء اذن أن يفترض أنهما قد جاءا الى مكة وأسا الكعبة هناك بناء على أمر الهى . وهذا الافتراض يتضمن بطبيعة الحال أن نسل اسماعيل قد افسد بصفة عامة العبادة والدين بطريقة مزعجة .

ان صلات محمد باليهودية والمسيحية - كما وصفناها هنا - وتاريخ تطور أسطورة ابراهيم فى عقل محمد بصفة خاصة ، كل ذلك يستبعد الآن تماماً الرأى الذى يذهب الى القول بأن دعوة محمد قد استندت الى جماعة الحنفاء الذين كانوا من قبله يدعون الى شئ من اليهودية والمسيحية تحت اسم دين ابراهيم(٨٦) .

(٨٥) لم يكن ذلك معرفة توصل اليها محمد ، بل كان وحياً قرأها جاء فى قوله تعالى : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » ( آل عمران ٦٧ ) .

(٨٦) لقد ورد ذكر ابراهيم عليه السلام فى القرآن فى تسع وستين موضعاً ، منها اثنتان وثلاثون مرة فى آيات مكية وسبع وثلاثون مرة فى آيات

وبعد أن وصف سنوك هورجرونيه صلات محمد باليهودية والمسيحية يطرح السؤال عن الدافع المحدد لبعثته النبوية .

لقد كان المرء فى السابق يرى بطريقة عامة أن محور دعوة محمد يتمثل فى كفاحه ضد الوثنية لصالح ( عقيدة ) التوحيد الصارم . ومن المؤكد - كما يرى سنوك هورجرونيه - أن وحدة الله كانت تمثل أحد الأعمدة الرئيسية للإسلام ، وقد نالت هذه العقيدة فيما بعد أهمية متنامية باستمرار . ولكن الحماس للدفاع عن الوحدة الإلهية ضد الوثنية وضد التثليث الخ لم يكن بالنسبة لمحمد هو الدافع المحدد لبعثته النبوية . فقد كانت هناك بالأحرى منذ البداية فكرة احتلت مكان الصدارة من تفكيره وسلوكه وهى فكرة يوم الحساب . فالأمر الذى كان يقلقه هو الاقتناع بأن الناس جميعا سوف يضطرون فى يوم من الأيام للمثول أمام الله للحساب وأنه لن يكون أمامهم مخرج آخر غير باب النار أو باب الجنة ( ٨٧ ) .

مدينة . وقد جاء الأمر باتباع ملة ابراهيم أولا فى أية مكية فى قوله تعالى : **« ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا »** ( النحل : ١٢٣ ) ، وتكرر هذا المعنى فى أكثر من آية مدنية ، مثل قوله تعالى : **« ملة أبىكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل »** ( الحج : ٧٨ ) ، وقوله تعالى : **« قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه »** ( المتحنة : ٤ ) . أما بناء الكعبة فقد تم على يد ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، كما ورد فى ذلك فى قوله تعالى : **« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل »** ( البقرة : ١٢٧ ) .

ويريد هورجرونيه كعادة غالبية المستشرقين أن يصور علاقة محمد بابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام بأنها أسطورة كانت تدور فى عقل محمد صلى الله عليه وسلم انطلاقا من زعمه الباطل بأن القرآن ليس وحيا حقيقيا من عند الله .

( ٨٧ ) الإيمان بالله الواحد الذى لا شريك له مرتبط ارتباطا وثيقا بالإيمان باليوم الآخر . والقرآن الكريم يربط باستمرار بينهما . فالإيمان باليوم الآخر ينبى على الإيمان بالله ، ولا يتصور إيمان باليوم الآخر دون الإيمان بالله . يقول الله تعالى : **« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . . . »** ( البقرة : ١٧٧ ) . وقد ورد تعبير الإيمان باليوم الآخر مسبقا بالإيمان بالله فى كل المواضع القرآنية التى ذكر فيها اليوم الآخر .

وقد كانت هناك فكرتان تتنازعان في عقله على السيطرة : فمن ناحية كانت هناك فكرة محكمة عامة للناس جميعا بعد بعث الأموات ، ومن ناحية أخرى كان هناك الخوف من المحاكمات الجزئية التي تتعرض لها من عصر الى عصر الشعوب التي تنمرد على رسل الله . وقد كانت هذه الأفكار المتمثلة في الكارثة النهائية وبعث الأموات والحساب والنار والجنة هي التي دفعت محمدا الى انعام الفكر والى النبوة . وقد عرضت ندم الآيات القرآنية هذه القضايا باثارة عاطفية تكاد أن تكون في صورة وحشية . وقد اتخذت هذه القضايا فيما بعد أشكالا أكثر ثباتا وأكثر تقليدية . وأخيرا عندما أصبح النبي على رأس جماعة تحتم عليه أن يقوم بتنظيمها ، وعندما توقف الصراع ضد الكفار في محيطه - ظلت عقيدة العالم الآخر عنصرا أساسيا من عناصر الاسلام . ولكن التصوير المثير للعواطف بشأن يوم الحساب لم يعد يظهر في الوحي المحمدي الا نادرا ( ٨٨ ) .

ان فكرة المحكمة الالهية ، التي كانت فكرة مشتركة بين اليهود والمسيحيين . قد أرققت محمدا وأقضت مضجعه اذن منذ البداية . ولكن اليهود والمسيحيين كانوا قد عرفوا عن طريق الوحي يقينية يوم الحساب ، وليس هذا فحسب ، بل عرفوا أيضا الأوامر التي أعطتهم

( ٨٨ ) لم تكن هذه أفكار تتنازع في عقل محمد كما يزعم هورجرونيه ، وانما كانت وحيا من عند الله . أما كون الحديث عن البعث والحساب والجنة والنار الخ . قد جاء في البداية في صورة تثير العواطف وتهز القلوب فذلك يرجع الى أن القلوب كانت فعلا في حاجة الى هذه الأثارة العاطفية نظرا لتحجرها وجمودها وانغلاقها . وقد سجل الوحي المكي ذلك في قوله تعالى : **« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »** ( الاعراف : ١٧٩ ) . ومن هنا كان حديث القرآن عن نهاية العالم ويوم القيامة بأوصاف الزلزلة والقارعة والرافجة والصاخة والطامة الكبرى وغير ذلك من أوصاف أخرى مماثلة . وبعد أن فتح الله القلوب الغلف والأذان الصم والأعين العمى ودخل الناس في دين الله أفرادا وجماعات لم يكن القرآن في حاجة الى تكرير نفس الأسلوب فلكل مقام مقال ، ولكن هذا الأسلوب سيظل أيضا قائما في كل العصور للخطوب التي يصيبها الوهن وللعقول التي يعترها الغرور وللنفوس التي يطأ عليها الشيطان . فيكون علاجنا نجعا مستمرا لأمراض القلوب .

مراعاتها اليقين بأنهم سيكونون من الناجين فى يوم الحساب . ( اما العرب فلم يأتهم نذير ) « لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك » ( ٨٩ ) .

ولم تكن المساواة التى أقرها محمد بين الشعوب أو الأجناس والطوائف الدينية تسمح له بالاعتقاد بأن وحيا من هذا الوحي السابق ( فى اليهودية والمسيحية ) كان مقررا لشعبه أو مقررا له هو . فكيف إذن يتجنب محمد وقومه العذاب المقيم ؟

لقد أجابت عن هذه القضية الحياتية ( المصيرية ) آيات القرآن التى ينظر إليها بالاجماع على أنها أقدم الآيات سواء من جانب المسلمين الأصوليين أو من جانب النظرة النقدية أيضا .

فاذا أراد المرء أن يعتبر محمدا انسانا قد أوحى اليه حقا من عند الله ، أو اذا أراد المرء أن يعتبر أنه قد أعطى له حد أدنى فقط من الروح النبوى ، أو اذا أراد أن يعتبر أن انشيطان قد تلبسه أو أنه انسان هستيرى أو مصاب بالصرع ، فإن الأمر الذى لا جدال فيه أنه كان لديه المزاج العقلى الخاص الذى يدفع أناسا معينين الى انعام الفكر وتعذيب أنفسهم بمسائل دينية الى أن يجدوا حلا لها . ولم يكن هناك فى الماضى ( بالنسبة لمحمد ) أحد من رجال الله استطاع أن يجيب عن الشدة والمعاناة التى أقضت مضجع محمد بوحى يشتمل على الحقيقة الواضحة عن البعث ويوم الحساب . والأمر الأقل من ذلك بكثير أنه لم يكن هناك أحد من أمثال هؤلاء بين معاصريه . وقد أتى اليه الخلاص من أعلى ! وقد كان هو نفسه معيننا من قبل الله لاجراج قومه من الظلمات الى النور !

وإذا كان سنوك هورجرونيه قد أثبت بذلك أن فكرة يوم الحساب كانت تحتل مكان الصدارة فى دعوة محمد فإنه بذلك يكون قد قام بنقض دعوى جريمه التى تتمثل فى القول بأن محمدا قد ظهر أولا بوصفه من قبيل المصلحين الاشتراكيين . وعلى الرغم من ذلك فإن سنوك هورجرونيه يخصص فصلا أخيرا مستفيضا لمناقشة هذا السؤال : هل كان محمد اشتراكيا ؟

وفى البداية يقدم هورجرونييه اعتراضين عامين ( ضد دعوى جريمه ) :

١ - كيف لم تتجه معارضة المكيين على الاطلاق - بناء على شهادة القرآن القاطعة - ضد الزكاة التى كانت فى رأى جريمه فى مقدمة دعوة محمد ، بل اتجهت المعارضة باستمرار وفى المقام الأول ضد عقيدة البعث ويوم الحساب ؟

٢ - هل كان محمد - فضلا عن ذلك - يدعو الى عقيدة يوم الحساب فقط لكى يجبر المكيين البخلاء على دفع الزكاة - حسب رأى جريمه - ؟

الم يكن فى وسع محمد أن يجد لذلك حينئذ وسيلة أفضل من تلك العقيدة التى لم يكن المكيون يؤمنون بها ، وهى عقيدة يقول عنها جريمه نفسه انها كانت أكثر النقاط ضعفا فى الاسلام الأسمى !

وحقيقة الأمر هى أن فرض الزكاة قد ذكر مع أمور أخرى دون أن تضاف إليه أهمية خاصة !

وهكذا يتضح من هذه النظرة العامة بطلان رأى جريمه (٩٠) . ولكن هناك أسبابا خاصة تضاف الى ذلك : فكلمة الزكاة التى ترجمها جريمه بالضريبة ( Steuer ) لم تكن تعنى اطلاقا معنى الضريبة فى العصر الأول للإسلام قبل الهجرة ، بل كانت تعنى ممارسة اختيارية لفضيلة « البر والاحسان » . وقد تم بعد الهجرة فرض « ضريبة » معينة ، ولكن محمدا لم يكن يستخدم هذه الإيرادات للتخفيف من عنت الفقراء ، بل كان ينفق منها وقت الحاجة على حملاته الحربية . وقد أصبحت هذه « الضريبة » أولا نظاما دائما فى عهد أبى بكر وأضحت « عمودا » من أعمدة الاسلام ، وأسهمت اسهاما كثيرا فى انتشار القوة الاسلامية (٩١) .

(٩٠) لا يعجب المرء من مثل هذه التحليلات التى لا يكل معظم المستشرقين عن الجرى وراءها وعرضها بثتى الأساليب فى طلاء علمى زائف ، فهذهم الرئيسى وشغلهم الشاغل هو محاولة طمس حقيقة الدين الإسلامى ، وأنى لهم أن يبلغوا هدفهم أو يصيبوا منه شيئا « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ( الصف : ٨ ) .

(٩١) منذ أن فرضت الزكاة فى السنة الثانية للهجرة وهى تمثل أحد الأعمدة التى يقوم عليها بنیان الإسلام . وما فعله أبو بكر رضى الله عنه

وتعد « فضيلة البر والاحسان » فضيلة شرعية عامة ، وقد امتدحها اليهود والمسيحيون بوصفها فضيلة أساسية . ولكن القرآن يشهد في بعض آياته بأن محمدا قد جعل من هذه الرؤية ( العامة ) رؤية خاصة به ( ٩٢ ) . فضلا عن ذلك فانه اذا كان محمد قد دعا منذ البداية الى الزكاة بمعنى « الضريبة » ، واذا كان - كما يريد جريمه - قد جعل من هذه الضريبة منذ البداية فصاعدا العنصر الأساسى لدعوته ، فحينئذ يحق للمرء أن يعجب جدا لأن التراث المحمدى كله لا يعرف شيئا من مثل هذا النظام ( الضريبي ) فى بداية الاسلام ، وليس هذا فحسب ، بل ان مما يثير الدهشة أيضا أن المحمديين قد ظلوا عن قصد عمر هذه « الدعامة » من دعائم دينهم لأنهم بصفة عامة قد حددوا زمن فرض مثل هذه « الضريبة » أولا بعد الهجرة .

وعلاوة على ذلك فانه لا يوجد فى الوحي المكى وصف لهذا الشكل من أشكال الضريبة ، ولا يوجد بيان من النبى عن الطرق المفروضة لجمع واستخدام هذه الضريبة ، وليس هناك أيضا أقل القليل من الاشارة او التلميح لهذا النظام ( الضريبي ) . وقد وضع التراث المحمدى توقيت نظام « الضرائب » الحكومى بوضوح فى وقت متأخر ( أى بعد الهجرة ) .

وأخيرا كان يجب أن يكون مثل هذا الاجراء ، وهو الدعوة الاشتراكية لفرض ضريبة من الضرائب ، ناتجا من الظروف الكلية لمدينة مكة بوصفه نتيجة حتمية . ولكن هذا أيضا لم يكن هو الحال . صحيح

لم يكن الا اقرارا وتأكيدا لذلك ودفاعا عنه . ومن هنا كان قوله بصدد مانع الزكاة : « والله لو منعونى عقاب بغير كانوا يؤدونها لرسول الله لتنازلتهم عليه » . أما بصارف الزكاة فتد حددها القرآن الكريم فى آية مدنية فى قوله تعالى : « **أما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم** » ( التوبة : ٦٠ ) .

( ٩٢ ) البر اسم جامع للخير ولكل فعل مرض ، ويدخل فى ذلك بطبيعة الحال الاتفاق فى وجوه الخير . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** » ( آل عمران : ٩٢ ) . وقد حدث القرآن على البر فى العديد من الآيات ، وكذا ما ليذه الفضيلة من أهمية بالغة فى حياة المؤمن .

ان التناقض بين الغنى والفقير كان قائما ، ولكنه لم يكن ( فى مكة )  
أسوا مما كان قائما فى أى مدينة أخرى .

ويضاف الى ذلك ان محمدا كان يدعو فى مكة باستمرار الى  
الصبر والتحمل السلبى . وأنه لم يتحول من الدفاع الى الهجوم الا بعد  
الهجرة الى المدينة . وقد كان هذا اذن فى الوقت الذى اختفت فيه دعوته  
الاشتراكية - حسب رأى جريمه - وحلت محلها عقيدة دينية ميتافيزيقية .

وهكذا يتضح ان الفرضية الجديدة عن محمد الاشتراكي - التى قال  
بها جريمه - لا تتفق بأى شكل من الأشكال مع الوقائع ولا يمكن البرهنة  
عليها بأى حجة تاريخية أو غيرها من حجج أخرى . ولكن فيما عدا  
ذلك فان سيرة محمد لجريمه لا تختلف بأى حال عن المؤلفات السابقة ،  
غير انه قد تخللها فى أماكن عديدة مزاعم جريئة ، الأمر الذى يعد آفة  
من الآفات لمؤلف من المؤلفات الشعبية . ولو كان قد قدم خلاصة دقيقة  
للعمل الذى بذل حتى الآن ( فى مجال كتابة السيرة ) لكان يمكن ان  
يكون ذلك أكثر ملاءمة بالنسبة لهذه الغاية .

أما القسم الثانى من سيرة محمد لجريمه ، الذى ظهر بعد القسم  
الأول بثلاث سنوات ، فانه يشتمل على « مقدمة الى القرآن » تناول فيها  
باختصار تاريخ نشأة القرآن وشكل السور القرآنية وتتابعها الزمنى . ولكن  
المضمون الأساسى لهذا المجلد يشكل « نسق علم العقيدة القرآنى » والذى  
سنعود للحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عز « تعاليم محمد »  
( ص ٢٠٠ ) ( ٩٣ ) .

وهناك قصور فى هذا الكتاب يتمثل فى ان جريمه لم ينتفع من  
الأحاديث الصحيحة التى تقدم تصورا أكثر حيوية وأكثر تنوعا لروح  
الاسلام مما يقدمه القرآن الذى يدحو فى معظمه نحو التجريد ( ٩٤ ) .

( ٩٣ ) هنا إحالة الى ص ٢٠٠ من كتاب بفاتبولر حيث يعرض  
بالتفصيل لما تضمنه كتاب جريمه من حديث عن علم العقيدة القرآنى .  
( ٩٤ ) علاقة السنة بالقرآن علاقة وثيقة ، فهى - كما يقول الامام  
الشاطبى : « راجعة فى معناها الى الكتاب ، نهى تفصيل مجمله وبيان  
مشكله وبسط مختصره » ولا تجد فى السنة أمرا الا والقرآن قد دل على  
معناه دلالة اجمالية أو تفصيلية . والسنة ليست قاضية على الكتاب وانما  
هى مفسرة له وإشارة لمعاني أحكامه . ( راجع الموانئ للشاطبى ج ٤  
ص ١٠ - ١٢ ) .

وإذا كانت فكرة الاشتراكية تحتل مكان الصدارة فى هذا الكتاب الذى يقع فى مجلدين عن سيرة محمد ، وهى فكرة قام سنوك هورجرونييه بتنفيذها ببراعة - فان حديث جريمه عن محمد فى كتابه « تاريخ العالم فى صور مميزة » يأتى بفرضية جديدة يحاول اثباتها وهى الأصل العربى الجنوبى لأفكار محمد الدينية . ومن أجل هذا الغرض خصص النصف الأول كله من دراسته لبحث التاريخ الأقدم لبلاد العرب . وهنا نتعرف على التاريخ السياسى والحضارى لبلاد العرب القديمه الشمالية والجنوبية .

والآن فان الاقتباس من جنوب العرب لا يعد فقط أمرا محتملا ، بل هو أمر راجح الى أقصى حد . أجل ، فهناك فى عبادة الاسلام ، على كل حال أمور كثيرة مما كان فى بلاد العرب القديمة بقدر أكثر مما كان يفترضه المرء فى العادة .

ولكن الأمر الذى يعد بعيد الاحتمال جدا هو أن تكون التأثيرات العربية الجنوبية وحدها هى كل شىء . فالأحرى أنه لا يجوز التغاضى عن التأثيرات اليهودية والمسيحية والفارسية . ويضاف الى ذلك أن مكة كانت مدينة لها صبغة عالمية لدرجة كبيرة ، ومن ناحية أخرى كان ظهور محمد أمرا غير عادى الى حد كبير (٩٥) .

ومن الطبيعى أن تتوقف التأثيرات العربية الجنوبية بالهجرة ( الى المدينة ) ، ومن هذه اللحظة فصاعدا فقد جريمه أيضا كل اهتمام بالتطور الدينى لمحمد . فكل شىء بعد ذلك يعد بالنسبة لجريمه مناورة سياسية لدجال امتهن الدين من أجل غايات دنيوية . وقد كان هذا الرأى عن محمد

---

(٩٥) الديانات السماوية تختلف فى طبيعتها عن الديانات البشرية . فهذه تخضع لمنطق التأثير والتأثر . . ومن هنا يمكن البحث عن أصولها وفروعها فى حضارات وديانات قديمة . أما الديانات السماوية التائمة على الوحى الالهى فلا تخضع لهذا المنطق . وما يبدو فيها من تشابه يرجع الى وحدة الأصل الالهى . والوحى اللاحق يصحح ما طرأ على الوحى السابق من عناصر غريبة . وقد بين القرآن - وهو النص الدينى الذى لم تتله يد التحريف والتبديل باعتراف كثير من المستشرقين وعلى رأسهم رودى بارت صاحب أحدث ترجمة ألمانية للقرآن - بين ما طرأ على اليهودية والمسيحية من تصورات لم يتضمنها الوحى الأسمى ولا صلة لها بالوحى الحقيقى . ومنذ أن كشف القرآن عن ذلك والحملة مستمرة من أتباع هذين الدينين ضد الاسلام ، ولا تزال قائمة لظهاره بمظهر الدين البشرى الملق من ديانات وحضارات سابقة .

رأيا عاما شائعا فى السابق ولا يزال الآن أيضا قوى الانتشار . ولكن محمدا لم يكن يجعل هناك أبدا فارقا بين الأمور الدينية والأمور السياسية . فهو يريد الانسان كله . والارتباط السياسى هو النتيجة البديهية تماما للتحول الى الاسلام ، والرعاية السياسية لأتباعه تعد جانبا أساسيا لنبوته . وأيضا فان ضم الكعبة الى دائرة نظرتة أو تأمله لا يعد مناورة سياسية ، بل يعد تطورا دينيا داخليا .

وفى مقال خاص نشر فى « مجلة الشرق الشهرية النمساوية » عرض جريمه مرة أخرى « أصول دين محمد » باختصار . فبجانب اليهودية والمسيحية كان هناك دين قائم فى الجنوب العربى هو « دين الرحمانان » بناء على شهادات النقوش السبئية . ويحاول جريمه أن يصف هذا الدين من واقع النقوش وصفا دقيقا وأن يبين صلته الوثيقة بدين محمد . ونتيجة لبحوثه يقرر جريمه أن الاسلام « لم يكن شيئا ولد فى رأس محمد ثمرة لتأمل أصيل دون أى تأثير من العالم المحيط به ، بل كان فى بداياته الأولى كما كان فى استمرار تطوره - طالما كان هذا التطور يحدث على أرض مكة - متشابكا تشابكا وثيقا مع « دين الرحمانان » الجنوبى العربى » .

ويصرف النظر عما اذا كان « دين الرحمانان » هذا لم يثبت اطلاقا أنه كان دينا خاصا فانه يبدو أن جريمه هنا أيضا لم يقدر قيمة التأثيرات اليهودية والمسيحية الا فى أقل القليل . والأمر كله لا يعدو أن يكون فرضية طريفة! (٩٦) .



### ١٣ - بول ( Buhl ) :

فى حين يوجه جريمه أكبر الاهتمام لتصوير البيئة المحيطة بمحمد فان بول (٩٧) الذى لم يترجم - للأسف - كتابه الممتاز عن سيرة محمد الى

(٩٦) الأخرى أن يقال أنها فرضية باطلة تستهين بعقول الناس . فاذا كان دين الرحمانان هذا المزعوم لم يثبت اطلاقا - كما يقول بفانموللر نفسه - أنه كان دينا خاصا له كيان متميز فكيف يمكن أن ينتج عنه هذا الدين العالمى المتمثل فى الاسلام ؟

(٩٧) فرانتس بول ( ١٨٥٠ - ١٩٣٢ ) مستشرق دانماركى ، كان أستاذا للمعهد القديم واللغات السامية . له دراسات اسلامية عديدة أهمها

الألمانية - يوجه اهتمامه الى موضوع التطور الدينى لمحمد . فقد جمع بعناية فائقة - وأنا أقرر هنا بكلمات (ك.ه. بيكر ) نظرا لأن الكتاب الأسمى لم يكن فى متناول يدى - جمع بين المراجع العربية والأوروبية ، وناقش مشكلة بعد مشكلة بحرص وبغزارة فى الأسانيد جديرة بالتقدير ، وبطبيعة الحال يقتفى فى الغالب أثر الثقات المحدثين ، ولكن نادرا ما يكون ذلك دون نقد وتمحيص .

ومما هو جدير بالاعتبار بصفة خاصة تحفظه ازاء فرضيات معينة من الفرضيات الحديثة الطريفة ، مثل تلك الفرضيات التى عرض علينا بعضها ( فنكلر Winckler ) ( ٩٨ ) بصفة خاصة فى ثوب مفر . وقد خصص كذلك قسما كبيرا من الكتاب للبيئة التى انحدر منها محمد ، اى للعالم العربى الوثنى . وفى حياة محمد ذاتها جرى بول تفرقة محمودة بين الأسطورة والتاريخ . وفى العرض الرائع المختصر لقضية المصادر الذى أورده بول فى نهاية الكتاب يجد المرء تعليلا للأسس التى راعاها بول فى كتابه .

أما بالنسبة لموضوع التطور الدينى ذاته فقد انتفع بول كثيرا بمقالة سينوك هورجروبييه ( الاسلام De Islam ) . وفى هذا الصدد نجد بول منصفا تماما لشخصية النبى . وهذا أمر يختلف تماما عن ( موقف ) جريمه الذى ظل النبى غريبا عنه داخليا .

وفى مقال لمجلة عالم الاسلام ( The Moslem World ) يقدم بول - على أساس كتابه الكبير عن سيرة محمد - عرضا مختصرا عن « أخلاق محمد بوصفه نبيا » يمتاز بدرجة كبيرة من الموضوعية .

وفى الكتاب التذكارى للاحتفاء بنولدكه يقدم لنا بول أخيرا « بعض اسهامات لنقد تاريخ محمد » وذلك فى قسمين :

- ١ - مقدمات معركة بدر .
- ٢ - الهجرة الى الحبشة .

\* \* \*

---

كتابه عن « حياة محمد » الذى صدر فى كويتهاجن عام ١٩٠٣ . وقد ترجم هذا الكتاب الى الألمانية عام ١٩٣٠ ، ونظرا لأن بفانمولر قد ألف كتابه عام ١٩٢٣ فلم تكن الترجمة الألمانية قد ظهرت بعد الى حيز الوجود ، ومن هنا كان تعبيره عن الأسف لعدم ترجمة كتاب بول الى الألمانية .

( ٩٨ ) فنكلر ( ١٨٦٣ - ١٩١٣ ) مستشرق المانى .

أما مرجليوث فإنه فى كتابه « محمد ونهضة الاسلام » قد أنتفع بسلسلة من المصادر الجديدة التى لم تكن قد استخدمت حتى ذلك الحين . وفى ذلك تكمن قوته كما يكمن ضعفه أيضا - كما يقول بيكر - . فالصورة نجدها حية جدا فى كثير من الحالات ، ولكن المؤلف يأخذ فى حالات كثيرة جدا الكساء المعهود للمذاهب المتأخرة على أنه تاريخ . كما أن المشكلة الدينية ، مثل التأسيس النفسى لعودة مضمذ الى طقوس العبادة المتعلقة بالكعبة ونزعتة الابراهيمية ، تتراجع لدى مرجليوث بشكل ملفت للنظر ، فى حين أنه يتتبع بشغف ظاهرة الوحي لدى محمد ويقارنها بأقوال المذهب الروحى الحديث وبالمذهب المورمونى ( Mormonism ) ( ١٠٠ ) .

ويرى مرجليوث فى محمد دجالا ماكرا معدوم الضمير وسياسيا يخدع الآخرين بشعوذاته . وبذلك يسد مرجليوث على نفسه الطريق لفهم أخلاق محمد وتطوره ( ١٠١ ) فالكتاب اذن له مزايا كثيرة ، ولكن اخطائه كبيرة أيضا . والشىء الممتاز يتمثل فى تلك الصور العديدة ( التى اشتمل عليها الكتاب ) .

( ٩٩ ) د . س . مرجليوث ( ١٨٥٨ - ١٩٤٠ ) مستشرق انجليزى معروف ، كان أستاذا للعربية فى جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٨٩ ، له دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه والأدب العربى وأصوله . وقام بترجمة الكثير من النصوص العربية ، كما قام أيضا بتحقيق عدد من المخطوطات العربية . ومن مؤلفاته : محمد ونهضة الاسلام ( ١٩٠٥ ) والاسلام ( ١٩١١ ) وانتشار الاسلام ( ١٩١٤ ) وجنوب الجزيرة العربية والاسلام ، وأصول الشعر العربى ( ١٩٢٥ ) . وهذا البحث الأخير هو الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى كتابه عن « الشعر الجاهلى » عام ١٩٢٦ .

( ١٠٠ ) انظر الهامش الذى سيأتى فى نهاية هذا البحث عن هذا المذهب عند الحديث عن ماير ( Meyer ) .

( ١٠١ ) لقد كان بفانمولر محقا فى تعليقه على كلمات مرجليوث المسببة بأنه بذلك قد سد على نفسه الطريق لنهم أخلاق محمد وتطوره . فالعالم يجب أن يترفع عن مثل هذا الاسفاف ويرتفع الى مستوى المسئولية العلمية حتى يستطيع أن يرى الحقيقة كما هى دون زيف .

وقد كتب مرجليوث أيضا مقالتين عن « محمد » احدهما فى دائرة المعارف البريطانية والأخرى فى دائرة معارف الدين والأخلاق . وتشتمل كلتا المقالتين أيضا على بيانات قيمة بالمراجع .

\* \* \*

#### ١٥ - جولدتسيهر ( Goldziher ) ومرحلة جديدة :

بدأت هناك مرحلة جديدة فى مجال البحث فى حياة محمد عن طريق بحوث جولدتسيهر حول « تطور الحديث » . وقد أثبت جولدتسيهر عن طريق عدد وفير من الأمثلة القاطعة أن « الحديث » ليس تاريخا وإنما هو رواسب تعكس ميول شتى التيارات والتيارات المضادة فى حياة الاسلام (١٠٢) .

وأول من طبق هذه المعرفة بصورة حاسمة على حياة محمد كان ( ليونى كيتانى (Caetani) (١٠٣) صحيح أن إنتاجه الضخم ( انظر ص ٣٦ وما بعدها ) (١٠٤) لا يتضمن سيرة حياة محمد بالمعنى الدقيق ، بل يشتمل فقط على عمل تمهيدى لذلك عن طريق جمعه الواسع للمادة

---

(١٠٢) اجناس جولدتسيهر ( ١٨٥٠ - ١٩٢١ ) مستشرق يهودى من أصل مجرى ، كان أستاذا فى جامعة بودابست . يعد من كبار أئمة الدراسات الاسلامية فى أوروبا ، كتب العديد من البحوث عن الاسلام باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية وغيرها . وقد شكك فى الأحاديث النبوية واعتبرها فى جعلتها تعكس تطور الاسلام الدينى والتاريخى والاجتماعى فى القرنين الأول والثانى . وقد تلقف كثير من المستشرقين من بعده هذا الزعم وبنوا عليه الكثير من النتائج . ولسنا هنا فى معرض مناقشة هذه الدعوى التى تقفد الأساس العلمى السليم ، فقد سبق أن ناقشها وفندها وبين تهافتها عدد من علماء المسلمين . راجع فى ذلك على سبيل المثال : السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى للدكتور مصطفى السباعى . أنظر أيضا كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ص ٩٩ وما بعدها .

(١٠٣) الأمير ليونى كيتانى ( ١٨٥٩ - ١٩٢٦ ) مستشرق ايطالى . له دراسات واسعة فى تاريخ الاسلام .

(١٠٤) يشير بفانمولر فى ص ٣٦ من كتابه الى كتاب كيتانى « حوليات الاسلام » فى تسع مجلدات ، وكتابه « دراسة لتاريخ الشرق » فى أربع مجلدات .

(العلمية) . وعنى أساس من هذا العمل التمهيدى تناول كيتانى العديد من الجزئيات المتعلقة بسيرة النبى بنقد أصيل وحاد ، وان كان فى بعض الأحيان أيضا يذهب فى النقد الى حد بعيد نسبيا . ( قارن فى ذلك بوجه خاص النقد المفصل لتيودور نولدكه للمجلدين الأول والثانى فى « مجلة فيينا لمعارف الشرق » جزء ٢١ ص ٢٩٧ - ٣١٢ ) .

ولكن كيتانى كان - حسب قول نولدكه - منصفا تماما لنفسية محمد الفريدة . ويبين لنا كيتانى بصورة ممتازة - طالما كان ذلك ممكنا - كيف تحول الداعية المتحمس لله تحولا سريعا ، بمجرد أن استقرت أقدامه فى المدينة ، الى سيد دنيوى وسياسى عبقرى دون أن يحدث فى باطنه تصدع واع وحقيقى ، والأمر الهام أن محمدا أيضا فى شتى تنظيماته وأعماله التى تجرح شعورنا الأخلاقى جرحا بالغا لم يفقد الوعى بأنه أداة الهه . هذا الاله الذى هو نفسه لديه نقاط ضعف انسانى الى حد ما (١٠٥) .

\*\*\*

#### ١٦ - لامانس ( Lammens ) :

يتابع لامانس (١٠٦) كلا من جولدتسيهر وكيتانى . ونحن ندين بالفضل للامانس لتلك السلسلة الكبيرة من البحوث عن تاريخ محمد التى

(١٠٥) الاسلام دين ودنيا ، سياسة وأخلاق ، عقيدة وشريعة ، وهذا أمر لا يريد المستشرقون أن ينهوه . ثم ما هى تلك الأعمال التى صدرت من محمد وتجرح الشعور الأخلاقى لدى الأوروبيين جرحا بالغا ؟ وما هى نقاط الضعف الانسانى التى يريد أن ينسبها كيتانى الى الله عز وجل ؟ هذا كلام غريب لا سند له على الاطلاق من عقائد الاسلام وتشريعاته . فالاسلام جاء ليتم الله به مكارم الأخلاق ، وتنزيه الله فى الاسلام عن صفات المخلوقين ومخالفته للحوادث من الأمور المشهورة التى لا تحتاج الى مزيد بيان .

(١٠٦) الأب لامانس ( ١٨٦٢ - ١٩٣٧ ) بلجيكى المولد فرنى الجنسية انضم الى سلك الرهبة عام ١٨٧٨ كان استاذا للعربية فى جامعة القديس يوسف فى بيروت التى تخرج فيها وتثقل شرقا وغربا ثم استقر فى بيروت وتوفى بها . وله دراسات عديدة عن الاسلام وتاريخه وقد أشار نجيب العقيتى الى عناوين بحوث لامانس فى ثلاث صفحات كاملة . وكتابات لامانس تتسم بالتعصب ضد الاسلام . وهذا أمر ليس غريبا على راهب يحاول أن يدافع عن دينه على حساب الاسلام .

تمتاز جميعها بحدّة ذكاء رائعة واطلاع عظيم . ولكنها فى تشككها ازاء المصادر غالبا ما تذهب فى ذلك الى حد بعيد أكثر من اللازم .

وقد ناقش كل من نولدكه وبيكر (١٠٧) فى مقالات مطولة نتائج بحوث لامانس . وكان نولدكه - فى نقده المشار اليه لكتاب كيتانى - قد عارض التشكك المجاوز للحد من جانب لامانس . وتناول نولدكه فى مقالة خاصة بعنوان « الحديث وصلته بحياة محمد » ( مجلة الاسلام ٥ ، ١٩١٤ ، ص ١٦٠ - ١٧٠ ) تناول أقوال لامانس بالتفصيل بنقد بالغ العمق . ويذهب نولدكه أيضا الى القول بأن انتطور الداخلى لمحمد ، والذي أدى الى النبوة ، يظل بالنسبة لنا من الأمور الغامضة حقا ، كما أننا لا نعرف الا القليل عن فترة نبوة محمد المكية . ولكن الأحاديث تقدم لنا أيضا بعض الأمور اليقينية عن هذه الفترة . وبانتقال محمد الى يثرب نطأ أرضا تاريخية واضحة :

« وعلى الجملة فاننى اذا اردت أن أخص وجهة نظرى فاننى يجب أن أعبر تعبيرا حاسما ضد الراى القائل بأن السيرة ( أى الوصف العربى لخياة محمد ) لم تكن الا مجرد ذيل أو ملحق لتفسير القرآن . انها كثيرا ما ترتبط بذلك برباط وثيق ، ولكنها مع ذلك مستقلة فى جملتها » .

وفى المجلد نفسه من مجلة « الاسلام » ( ص ٢٠٥ - ٢١٢ ) يقدم نولدكه حديثا مفصلا ونقدا لكتاب لامانس الرئيسى « مهد الاسلام » الذى سنتحدث عنه بعد قليل بشئ من التفصيل .

وفى المجلد الخامس عشر من مجلة « ارشيف لعلم الأديان » قدم بيكر فى تقريره عن المراجع حول الاسلام بيانا مختصرا بمضمون البحوث المختلفة التى قام بها لامانس . وفى مقال خاص بعنوان « أمور مبدئية لدراسة لامانس للسيرة » فى المجلد الرابع من مجلة « الاسلام » ناقش بيكر مرة أخرى مناقشة مبدئية آراء لامانس حول مصادر تاريخ حياة محمد

---

(١٠٧) لقد سبق الحديث عن نولدكه فى هامش سابق . أما كارل هينريش بيكر ( Becker ) ( ١٨٦٧ - ١٩٣٣ ) فهو مستشرق ألمانى ، كان أستاذا فى هامبورج وبون ، له دراسات عديدة فى التاريخ الاسلامى . وقد أنشأ مجلة « الاسلام » الألمانية ( Der Islam ) عام ١٩١٠ .

وقد أبدى ( شفالى Schwally ) ( ١٠٨ ) فى مواضع مختلفة من تنقيحه لكتاب نولدكه « تاريخ القرآن » ( المجلد الأول ص ١٠١ وما بعدها ، والمجلد الثانى ص ٢٠ وما بعدها ، ص ٨٤ ، وبصفة خاصة ص ١٩٦ - ١٩٨ ، ٢١٤ وما بعدها ) - أبدى رايه فى أهم مواقف لامانس .

وعلى أساس من هذه الانتقادات نعرض للحديث باختصار عن أعمال لامانس الرئيسية .

فدراسة لامانس التى عنوانها « مكة بوصفها مركزا تجاريا حوالى عام ٦٠٠ ميلادية » يقف فيها بصورة رائعة وعناية دقيقة على ظروف مكة الاقتصادية والسياسية عند ظهور النبى .

اما مقالته « القرآن والحديث . كيف تمت كتابة سيرة محمد » فانها تقدم أفضل نظرة توضح كيف يتصور لامانس نشأة شكل السيرة . وفى هذه المقالة يرى لامانس أن سيرة حياة محمد لا تقوم - كما يظن المرء غالبا - على مصدرين مستقلين هما تفسير القرآن والحديث النبوى ، بل أن المادة الحديثية كلها المتعلقة بحياة محمد وظهوره ليست شيئا آخر غير مادة تفسيرية مخترعة بشكل حر للاشارات القرآنية . فالمصدر الوحيد إذن لحياة محمد - وليس لتعاليمه - هو القرآن . وهذه الدعوى يعرضها لامانس بكثير جدا من الذكاء الحاد عن طريق الأمثلة الكثيرة .

ويرتبط بهذه المقالة ارتباطا وثيقا عمل آخر يتمثل فى بحثه عن « عصر محمد والترتيب الزمنى للسيرة » . وهنا يبين لامانس اضطراب وضعف بيانات الترتيب الزمنى التى تبدو كأنها بيانات دقيقة والتى تشتمل عليها الأحاديث ( النبوية ) الاسلامية عن حياة محمد . ويجب أن ننظر الى هذه البيانات على أنها محاولة أجريت بوسائل غير كافية تماما من جانب علماء الخلف المقلدين الذين كانوا مهتمين بمسائل الترتيب الزمنى وقاموا بادماج الأحاديث الشفوية - التى تفتقد أصلا التحديد الزمنى الدقيق - فى قالب تاريخى . ولا يريد لامانس أن ينكر احتمال أن تكون

---

( ١٠٨ ) فريدريش شفالى ( ١٨٦٣ - ١٩١٩ ) مستشرق ألمانى نشر كتاب المحاسن والمساول للبيهقى عام ١٩٠٢ واشترك فى نشر الطبقات لابن سعد ، وله دراسات فى القرآن والجغرافيين العرب وجغرافية مصر .

هناك على الأقل بعض بيانات جديدة بالتصديق فى هذا الترتيب الزمنى الذى هو فيما عدا ذلك مصنوع تماما (١٠٩) .

والكشف عنها ( أى عن البيانات الصحيحة ) هو مهمة بحث نقدى خاص . ويريد لامانس أن يخفض مدة حياة محمد وعمره عند الأحداث الحاسمة عقدا من الزمان على الأقل - على عكس ما تقول به الأحاديث (١١٠) .

ويهتم لامانس أيضا بالسؤال القديم : « هل كان محمد مخلصا » ؟ . ويعتقد لامانس - بناء على تحليل نفسى دقيق - أنه يتحتم الاجابة بالنفى على هذا السؤال (١١١) .

ويعبر لامانس فى بحثه « حكومة الثلاثة : أبى بكر وعمر وأبى عبيدة » عن الافتراض بأن هؤلاء الرجال الثلاثة قد جمعوا شملهم قبل وفاة النبى ثم بعد وفاته على وجه اليقين لكى يمنعوا سقوط الدولة ، وانهم اذن لم يكونوا متحمسين دينيين أيضا ، بل كانوا ساسة حصفاء (١١٢) .

(١٠٩) هدف الأب لامانس هو التشكيك والذهاب فى ذلك الى أبعد مدى . وقد لاحظ ذلك أيضا بعض المستشرقين المعتدلين نسبيا ورفضوا وجهات نظره المجاوزة للحد كما هو واضح من مناقشات كل من نولدكه وببكر وشفاللى وملاحظات بنانهولدر أيضا .

(١١٠) هذه نظرية غريبة لم يقل بها - فيما نعلم - أحد من المستشرقين ولا من غيرهم من قبل . ولعلها محاولة من جانب لامانس لينى عليها ما يريد أن يستنتجه من المزيد من التشكيك .

(١١١) لامانس حر فى أن يعتقد ما يشاء ، ولكنه ليس حرا حينئذ فى أن يحدثنا عما يعتقد باسم العلم فالعلم برىء من مثل هذه الأراجيف الباطلة . فحياة محمد صنئ الله عليه وسلم ناصعة البياض فى كل جوانبها من بدايتها الى نهايتها . ولكنه منطقت التعصب الذميم يعمى القلوب والأبصار عن رؤية الحقيقة .

(١١٢) عبثا يحاول المرء انهام المستشرقين بأنة لا انفصالية بين الدين والسياسة فى الاسلام ، فهناك اصرار على فرض مفهومهم للدين على الاسلام . ونحن من جانبنا لا نقبل هذا المفهوم لأنه مفهوم قاصر لا يأخذ فى اعتباره الا الجانب الروحى فقط من الانسان . والاسلام بتعاليمه جاء ليقيم التوازن بين كل جوانب الانسان الروحى والعقلية والجسمية ، غمتى يدركون ذلك ؟

وقد تناول بيكر بالتفصيل دراسة مطولة أخرى للامانس حول موضوع « فاطمة وبنات محمد ، ملاحظات نقدية لدراسة السيرة » ( مجلة الاسلام ، ٤ ، ١٩١٣ ص ٢٦٣ - ٢٦٩ ) .

ويعترف بيكر عن طيب خاطر بالخدمات الكبرى للامانس فى مجال البحث النقدى لحياة محمد ويوافقه فى الحكم على التصوير الاسلامى لسيرة النبى ، فهذه السيرة ليست مصدرا تاريخيا مستقلا ، بل هى مأخوذة فى وقت متأخر من تفسير القرآن ومن الأحاديث المختلفة التى أتت نتيجة للميول العقدية والفقهية ، ونسقت تنسيقا بيوجرافيا ، فالسيرة اذن انتاج متأخر .

ولكن بيكر يؤكد - معدلا من حكم لامانس - أن هناك فى السيرة بجانب الكم الكبير من القصص المغرضة أخبارا عديدة لم يثبت أنها مغرضة ، وتسمح يقينا باعادة بناء صورة تاريخية . ويتهم بيكر لامانس أنه بصفة خاصة لم يكن فى نقده منطقيا مع نفسه بقدر كاف ، بل كان يسلم بالصورة السيئة للمأثورات المغرضة الموجهة ضد على دون فحص يأخذها على أنها صورة تاريخية لدرجة تجعل تصويره يسقط فى عشوائية تامة .

وبعد كل هذه الدراسات التمهيدية قام لامانس فى كتابه الرئيسى « مهد الاسلام » ببيان الصورة التاريخية لنشأة الاسلام من المصادر وبتفصيل القول فى مجال هذه الصورة كله . واقتناعا منه بأهمية معرفة البيئة يخصص لامانس المجلدين الأولين - اللذين لم يظهر منهما حتى الآن الا المجلد الأول فقط - لوصف أماكن مولد الاسلام ، ووصف بلاد العرب الغربية وسكانها . وعلى أساس من الاطلاع الواسع الذى يحسد عليه فى كل أنواع المراجع العربية القديمة ، التى سجل معلوماتها فى آلاف الهوامش ، استطاع لامانس أن يصف الأرض والناس فى الحجاز فى عصر ظهور النبى وصفا حيا الى أقصى حد .

ويضع لامانس بين القسمين الرئيسيين للكتاب - حيث يصف أولهما الظروف الاقتصادية والطبيعية للبلاد ، ويصف ثانيهما حالة أوضاع حياة القبائل البدوية ( أما السكان القاطنون المستقرون فإنه يصفهم فى المجلد الثانى ) - يضع مناقشة جديرة جدا بالتقدير للدعوى الجديدة التى تذهب الى القول بأن الطقس قد تغير فى بلاد العرب تغيرا أساسيا فى زمن تاريخى . فالتحول المستمر للبلاد الى صحراء غير مأهولة

بالسكان كان الدافع الحقيقي للفيضانات البشرية الكبيرة من جانب سكان « مجلس الشعوب » العربية الى بلاد الحضارة المجاورة ، وبصفة خاصة أيضا كان الدافع الحقيقي للفتوحات الاسلامية . ( قارن يونى كيتانى ص ٢٧ ) ( ١١٣ ) .

ويعد لامانس خصما لدودا لهذه النظرية ، ربواجها بصفة خاصة بحقيقة مؤداها أن تاريخ اقتصاد الحجاز يدل على أنه كان هناك مستوى عال لحضارة البلاد فى القرون السابقة مباشرة لظهور محمد ، ويدل على كل شيء آخر غير الاقفار العام والفقير الذى يمكن أن يدفع الى توسع عنيف .

ويمكن القول على وجه الاجمال بأن لامانس بمؤلفاته كلها قد جمع مادة ( علمية ) عظيمة لتاريخ حياة محمد ، تقدم لكل باحث - مع استخدام النقد الضرورى - اشارات ثرية .

اما أحدث تصوير انجليزى لحياة محمد من جانب كل من ( كانون سل Canon Sell ) و ( درايكوت G. M. Draycott ) فلم يكن فى متناول يدى . واستنادا الى ما يقوله ( ت . ف . ارنولد Arnold ) ( ١١٤ ) فان درايكوت لم يعتمد على المصادر ، ولم يعرف لا دين النبى نفسه ولا المؤلفات الاساسية عن الاسلام . ( قارن : مجلة تاريخ الأديان ٨٠ ، ١٩١٩ ص ٢٨٣ ) .

\* \* \*

( ١١٢ ) يشير بفانمولر فى ص ٣٧ الى تبينى كيتانى للنظرية القائلة بأن الجفاف المتزايد فى بلاد العرب هو الذى دفع المسلمين الى الفتوحات الاسلامية واضطر السكان الى الهجرة .

( ١١٤ ) لم نعرّف فيها بين أيدينا من مراجع على ترجمة حياة كل من سل ودرايكوت . أما السير توماس ارنولد ( ١٨٦٤ - ١٩٣٠ ) فهو مستشرق انجليزى كان أستاذا فى جامعة عليكره ولاهور بالهند ثم أصبح أستاذا للعربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى لندن . له دراسات اسلامية عديدة . وأهم مؤلفاته كتاب « الدعوة الى الاسلام » الذى ترجم الى العربية والتركية والاوردية .

## خامسا : كتابات شعبية عن حياة محمد

١ - ريكندورف ( Reckendorf ) :

من بين المؤلفات الشعبية العديدة عن حياة محمد نذكر فقط كتاب « محمد وأصحابه » من تأليف ريكندورف (١١٥) ، وكتاب « حضارة العرب » من تأليف يوسف هيل . وقد ظهر كلاهما في مجموعة « العلم والثقافة » .

وريكندورف وان كان لم يقدم ترجمة حقيقية لسيرة محمد الا أنه قد نجح بصورة رائعة فى توضيح الأسس الاجتماعية والحضارية والاقتصادية والسياسية والذاتية للإسلام فى بداياته بشكل مترابط .

ويتناول ريكندورف فى فصول أربعة ( الموضوعات التالية ) :

١ - قوة تأثير أعمال محمد ونشاطاته .

٢ - حروب محمد .

٣ - أصحاب محمد .

٤ - رئيس الدولة والرعية .

وفى فصل خامس يقدم لنا نظرة على تطور الأحداث بعد وفاة محمد . ويعقب ذلك ملحق يشتمل على ذكر أهم المراجع . ويستند عرض الموضوعات على القرآن بصفة خاصة ، ولكنه يعطى أحيانا - رغم كل النقد - ثقة أكثر من اللازم للحديث . ومن بين الأخطاء التى يبرزها سنوك هورجرونيه بصفة خاصة فى نقده المفصل ( المنشور فى جريدة الأدب الألماني ١٩٠٧ عمود ١٣٠٩ - ١٣١١ ) بعض الأخطاء التى تتعلق بقصور المعرفة للقوانين العربية للأسرة .

\*\*\*

(١١٥) هـ . ريكندورف ( ١٨٦٣ - ١٩٢٤ ) مستشرق ألماني ، كان

أستاذا للغة العربية فى فرايبورج . وقد صدر كتابه المشار اليه فى لبيترج عام

١٩٠٧ .

## ٢- هيل ( Hell ) :

ويقدم هيل أيضا فى الفصل الثانى من كتابه « حضارة العرب »  
صورة حية لحياة النبى وتعاليمه (١١٦) .

\*\*\*

## ٣ - كامبفاير ( Kampfmeier ) :

فى أربع مقالات - تدل على خبرة علمية - كتبها كامبفاير (١١٧)  
لمجلة « العالم المسيحى » يصف القرآن باعتباره مصدر حياة محمد ،  
ويصف أحوال بلاد العرب قبل الاسلام ، ويعرض تعاليم محمد . ( عقيدة  
البعث والحساب ووحدة الله والقضاء والقدر ومفهوم الوحي وتعاليم الأخلاق  
القرآنية ) . ويختتم مقالاته بنظرة على تطور الاسلام بعد ذلك .

\*\*\*

## ٤ - ريم ( Rehm ) ، وفورتس ( Würz ) :

أما تصوير ريم لمحمد ولعالم الاسلام فى سلسلة مكتبة ريكلام العالمية فقد  
جاء شعبيا أكثر من اللازم، ولم يكن منصفا للحضارة العقلية للاسلام (١١٨) .  
وفى «مجلة التبشير الانجيلي» ( مجلد ٦٦ ، ١٩٢٢ ، ص ٢٧٢  
وما بعدها ) ألقى « ف.فورتس » نظرة سريعة على « محمد وأعماله » .

\*\*\*

## ٥ - ماير ( Meyer ) :

وفى النهاية نشير أخيرا الى تلك المحاولة !هامة التى قام بها ادوارد

---

(١١٦) يوسف هيل ( ١٨٧٥ - ١٩٥٠ ) مستشرق المانى ، كان  
أستاذا بجامعة ارلانجن بألمانيا وله اهتمام خاص بالشعر العربى . وقد ظهر  
كتابه « حضارة العرب » فى ليبترج عام ١٩٠٩ ثم أعيد طبعه عام ١٩١٩ .  
وقد ترجمه الى الانجليزية خودابخش عام ١٩٢٥ .

(١١٧) ج . كامبفاير ( ١٨٦٤ - ١٩٣٦ ) مستشرق المانى ، كان  
أستاذا للعربية فى ماربورج ورأس تحرير مجلة « عالم الاسلام » ، له  
دراسات فى الأدب العربى المعاصر .

(١١٨) ظهر كتاب ريم بالألمانية عام ١٩١٥ فى ليبترج بعنوان :

« محمد وعالم الاسلام » .

ماير(١١٩) فى استخلاص أوجه الشبه بين ظهور محمد ومؤسس طائفة المورمون جوزيف سميث(١٢٠) .

ويربط ماير أقدم سورتين - طبقا لما ورد بشأنهما فى الأحاديث وهما السورة رقم ٧٤ والسورة رقم ٩٦ - يربطهما بالرؤى الروحية التى شهد بها النبى نفسه ، ( مرة ) وقت شعوره باصطفائه على جبل حراء ، ( ومرة أخرى ) عند « شجرة سدرة المنتهى » . ويفسر ماير شجرة سدرة المنتهى - متفقا فى ذلك مع اشبرنجر - بمكان معين لدى مكة ضاعت معاله بعد ذلك(١٢١) .

ويؤيد ماير الفهم القائل بأن كلمة « اقرا » فى بداية السورة رقم ٩٦ يجب أن تفهم بمعناها الحقيقى وأنها تنسح على الوحى .

وبصرف النظر عن أن ماير قد ترجم الكلمة العربية « اقرا » ترجمة خاطئة بمعنى ( Lesen ) ( أى بالمعنى المعهود الذى تدل عليه الكلمة

---

(١١٩) ادوارد ماير ( ١٨٥٥ - ١٩٣٠ ) مستشرق ألماني . وقد صدر كتابه عن « أصل المورمون وتاريخهم مع نظرة حول بدايات الاسلام والنسب » فى هاله بألمانيا عام ١٩١٢ .

(١٢٠) المورمون طائفة مسيحية ، أسسها فى الولايات المتحدة عام ١٨٣٠ جوزيف سميث ( ١٨٠٥ - ١٨٤٤ ) وادعى أنه يوحى اليه . وقد أسس المورمون عام ١٨٤٨ مدينة المورمون انتظاراً لعودة المسيح . والسؤال الآن هو : أى أوجه شبه يريد أن يستخلصها ماير من مقارنته بين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ومؤسس هذه البدعة الجديدة جوزيف سميث ؟ إن هذا ضرب من العبث واستهانة بعقلية التارىء الذى لا تخفى عليه أهداف هذا العبث الذى ليس له مبرر دينى أو أخلاقى .

(١٢١) وردت «سدرة المنتهى» فى سورة النجم فى قوله تعالى : «ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى» (النجم:١٣-١٥) والسدرة معناها شجرة . أما أنها سدرة المنتهى أى التى ينتهى إليها المطاف فجنة المأوى عندها ، أو التى انتهت إليها رحلة المعراج أو التى انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أنها شجرة كانت فى مكان معين لدى مكة ضاعت معاله بعد ذلك ، فهذا أمر لا يمكن فهمه من سياق الآيات على الإطلاق . وليس له ما يبرره الا محاولة فهم الاسلام بأنه متطوع الصلة بالسماء .

وهو القراءة ) ، فى حين أن المعنى المقصود هو « يتلو »  
( rezitieren ) ( ١٢٢ ) - بصرف النظر عن ذلك فإن مقارنته مفيدة ومثيرة  
للاهتمام ، وإن كان أيضا يجاوز الحد فى بعض الأحيان .

( قارن النقد المفصل الذى كتبه ( يوهانز بيدرسين ( Pedersen )  
فى مجلة « الاسلام » ٥ ، ١٩١٤ ص ١١٠ - ١١٥ ) .

\* \* \*

( ١٢٢ ) كلمة « اقرأ » فى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »  
( العلق : ١ ) تعنى القراءة لا التلاوة . ويؤيد ذلك ما ورد فى حديث بدء الوحي  
الذى رواه الامام أحمد والشيخان عن عائشة وفيه : « نجاءه الملك فقال :  
اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ » . غرده عليه الصلاة والسلام بقوله : « ما أنا  
بقارئ » يدل على أن المراد هو القراءة بمعناها المعهود .